الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

المركز الجامعي بريكة

معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية

Centre Universitaire – Barika

INSTUTUT DE SCIENCES HUMAINES ET SOCIALES

رقم:..25../م ع إ ا/م ج ب/2021

N°:...25.../SHS/CUB/ 2021

بريكة، في.....2021/02/20.....

Barika, le .....2021/02/20.....

مستخرج من محضر المجلس العلمي لجلسة ليوم 2021/02/02

بخصوص المصادقة على المطبوعة البيداغوجية

انعقد المجلس العلمي للمعهد في دورته العادية بتاريخ2021/02/02 ووافق بناء على التقارير الإيجابية للخبراء على المطبوعة البيداغوجية

للأستاذ: زيوش السعيد

الرتبة: أستاذ محاضر صنف "أ"

عنوان المطبوعة: مدخل إلى الأنثروبولوجيا

المستوى المستهدف: السنة الأولى علوم اجتماعية

رئيس المجلس العلمي

المركز الجامعي سي الحواس بريكة
المجلس العلمي لمعهد العلوم الإنسانية والاجتماعية

جمال بلفردي

منحت هذه الشهادة للإدلاء بها في حدود ما يسمح به القانون

المركـــز الجامعـــي ســي الحـــواس بريكـــة
معهد العوم الإنسانية والاجتماعية
قسم علم الاجتماع

مطبوعة بيداغوجية في مادة مدخل إلى الأنثروبولوجيا

موجهة لطلبة السنة الأولى جذع مشترك علوم اجتماعية

مطبوعة معتمدة من طرف الهيئات العلمية
المجلس العلمي لمعهد العلوم الإنسانية والاجتماعية - المركز الجامعي بريكة

إعداد: د. سعيد زيوش

أستاذ محاضر أ

قسم علم الاجتماع

السنة الجامعية 2021/2020

فهرس المحتويات

المحتوى	الصفحة
مقدمة	4
الفصل الأول – مفهوم الأنثروبولوجيا وطبيعتها وأهدافها	7
أولاً- مفهوم الأنثروبولوجيا	9
ثانياً- ماهية الأنثروبولوجيا	11
ثالثاً- لماذا ندرس الأنثروبولوجيا ؟	14
الفصل الثاني – نشأة الأنثروبولوجيا وتاريخها	18
أولاً- العصر القديم	16
ثانياً- العصور الوسطى	22
ثالثاً- عصر النهضة الأوربية	29
الفصل الثالث–علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى	41
أولاً -علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء	38
ثانياً–علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع	41
ثالثاً–علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الفلسفة	44
رابعاً- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس	45
خامساً_علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجيولوجيا والجغرافيا	48

الفصل الرابع دراسة الأنثروبولوجيا واتجاهاتها المعاصرة *56*

أولاً- بداية دراسة الأنثروبولوجيا *52*

ثانياً- الاتجاهات المعاصرة لدراسة الأنثروبولوجيا *54*

1- الاتجاه التاريخي *55*

2- الاتجاه البنائي/ الوظيفي *73*

ثالثاً-الأنثروبولوجيا والحداثة 86

رابعاً- الأنثروبولوجيا والمعرفة *98*

خاتمة *106*

قائمة المراجع *107*

مقدمة:

هذا العمل البيداغوجي المتواضع الذي بين أيدينا هو موجه بصفة عامة لكل المهتمين بعلم الانثروبولوجيا وعلاقته بالحياة العامة للفرد المجتمع، وموجه لطلبة السنة الأولى جذع مشترك للعلوم الاجتماعية بالخصوص، وقد ارتئينا أن نبسط مقياس مدخل إلى الأنثروبولوجيا حتى يتمكن الطالب والقارئ معاً من فهم هذا العلم القائم بحد ذاته، إذ عمدنا إلى تقديم تعريفات ومفاهيم حول هذه العلم وكيف كانت نشأته، والتركيز على أهميته في حياة الأفراد والجماعات، ثم حاولنا التطرق إلى علاقة الانثروبولوجيا ببعض العلوم الأخرى، و تقديم لمحة للمهتمين بعلم الانثروبولوجيا حول مختلف الاتجاهات التي يتناولها هذا العلم.

فكلمة الأنثروبولوجيا مكونة من مقطعين الأول هو Anthropoأي الإنسان، والثاني هو Logy إلى العلم أو الدراسة. ومعنى ذلك أن ترجمة اسم هذا العلم هو "علم الإنسان" أو "دراسة الإنسان." " أو الدراسة البشرية"والحقيقة أن ترجمة اسم العلم الأنثروبولوجي إلى اللغة العربية أثبتت عدم جدواها واتضح أنه أمر غير علمي، لأنه لا يقدم تسمية كاشفة دالة. فهناك علوم أخرى كثيرة تدرس الإنسان، كالتاريخ وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والبيولوجيا الإنسانية.. إلخ آل تلك وغيرها علوم تدرس الإنسان[1].

[1] سليم، شاكر. قاموس الأنثروبولوجيا، الكويت: جامعة الكويت، 1981، ص 10

لهذا السبب العملي آثر علماء الأنثروبولوجيا العرب الإبقاء على تسمية العلم آما هي في لغتها الأصلية، دون ترجمتها. هذا من حيث التسمية .أما من حيث موضوع العلم فإننا نجد من استعراض الدراسات الأنثروبولوجية في ماضيها وحاضرها أن رجال هذا العلم قد أخذوا التعريف اللفظي لعلمهم مأخذ الجد. ومن هنا أصبح موضوع هذا العلم بحق هو دراسة الإنسان وأعماله، أي كل منجزاته المادية والفكرية، أي الدراسة الشاملة للإنسان. ولهذا نقول إن الأنثروبولوجيا هي أكثر العلوم التي تدرس الإنسان وأعماله شمولاً على الإطلاق[1].

وهناك دلائل وشواهد عديدة على هذا الشمول: فالأنثروبولوجيا تجمع في علم واحد بين نظرتين كل من العلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية، فتركز مشكلاتها – من ناحية –على الإنسان كعضو في المملكة الحيوانية، وعلى سوك الإنسان كعضو في مجتمع، من ناحية أخرى. ثم إن الأنثروبولوجى لا يقصر نفسه على دراسة أي مجموعة معينة من الناس، أو أي حقبة من الحقب التاريخية. بل أننا نجده –على العكس من ذلك –يهتم بالأشكال الأولى للإنسان وسلوكه بنفس درجة اهتمامه بالأشكال المعاصرة. إذ يدرس آلا من التطور البنائي للبشرية ونمو الحضارات منذ أقدم الأشكال التي وصلتنا عنها أي سجلات أو بقايا. كذلك يوجه الأنثروبولوجى اهتماماً خاصاً إلى الدراسات المقارنة في سياق اهتمامه بالجماعات والحضارات الإنسانية المعاصرة[2].

[1] نفس المرجع السابق، ص 25

[2] أبو هلال، أحمد. مقدّمة في الأنثروبولوجيا التربوية، الأردن: المطابع التعاونية، 1974، ص 9

وهو يحاول —في أحد فروع الدراسة الأنثروبولوجية كشف وتوصيف المعايير الفيزيقية التي تميز الجنس البشرى عن سائر الكائنات الحية الأخرى، وكذلك تلك المعايير التي تصلح للتمييز بين الأنواع العديدة داخل الأسرة البشرية نفسها. وتركز الدراسة المقارنة للحضارات) أو الثقافات آما يسميها علماء الأنثروبولوجيا (اهتماماً على أوجه الاختلاف والتشابه في الثقافات، التي يمكن ملاحظتها بين الجماعات البشرية العديدة التي تعيش على سطح كوكبنا، وتحاول أن تحدد وتعرف القوانين أو المبادئ التي تحكم تكون المجتمعات البشرية والثقافات البشرية وتطورها.

الفصل الأول: مفهوم الأنثروبولوجيا وطبيعتها وأهدافها

أولاً- مفهوم الأنثروبولوجيا

ثانياً- ماهية الأنثروبولوجيا

ثالثاً- لماذا ندرس الأنثروبولوجيا؟

الفصل الأول: مفهوم الأنثروبولوجيا وأهدافها:

تعدّدت الدراسات والاتجاهات التي تناولت الأنثروبولوجيا، في الآونة الأخيرة، بوصفها علماً حديث العهد، على الرغم من مرور ما يقرب من القرن وربع القرن على نشأة هذا العلم.

لقد اتّسعت مجالات البحث والدراسة في هذا العلم الجديد، وتداخلت موضوعاته مع موضوعات بعض العلوم الأخرى، ولا سيّما علوم الأحياء والاجتماع والفلسفة. كما تعدّدت مناهجه النظرية والتطبيقية، تبعاً لتعدّد تخصّصاته ومجالاته، ولا سيّما في المرحلة الأخيرة حيث التغيرات الكبيرة والمتسارعة، التي كان لها آثار واضحة في حياة البشر كأفراد وكمجتمعات.

وبما أنّ الأنثروبولوجيا تهتمّ بدراسة الإنسان، شأنها في ذلك شأن العلوم الإنسانية الأخرى، فهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع الإنساني الذي توجد فيه، حيث تعكس بنيته الأساسية والقيم السائدة فيه، وتخدم بالتالي مصالحه في التحسين والتطوير.

ثمّة من يردّ بدايات تاريخ الأنثروبولوجيا إلى العصور القديمة، إلاّ أنّ الأنثروبولوجيين الغربيين، ولا سيّما الأوروبيون، يرون أنّ الأصول النظرية الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا، ظهرت إبّان عصر التنوير في أوروبا (عصر النهضة الأوروبية)، حيث تمّت كشوفات جغرافية وثقافية لا يستهان بها، لبلاد ومجتمعات مختلفة خارج القارة الأوربية.

وقد قدّمت هذه الكشوفات معلومات هامة عن الشعوب القاطنة في تلك البلاد، أدّت إلى تغيّرات جذرية في الاتجاهات الفلسفية السائدة آنذاك، عن حياة البشر وطبيعة المجتمعات الإنسانية وثقافاتها وتطوّرها. وهذا ما أدّى بالتالي إلى تطوير المعرفة الأنثروبولوجيّة، واستقلالها فيما بعد عن دائرة الفلسفة الاجتماعية.

لقد انحسرت الفلسفة – إلى حدّ ما – في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمام التفكير العلمي، حيث تطوّرت العلوم الاجتماعية واستطاع العالم البريطاني / إدوارد تايلورE. Tylor / أن يرى في تنوّع أساليب حياة الشعوب وتطوّرها، ظاهرة جديرة بالدراسة، وأنّ علماً جديداً يجب أن ينشأ ويقوم بهذه المهمّة. وسمّى تايلور هذه الظاهرة بـ" الثقافة Culture أو الحضارة Civilization " [1]

ومع دخول الأنثروبولوجيا مجال القرن العشرين، بأحداثه وتغيّراته العلمية والاجتماعية والسياسية، طرأت عليها تغيّرات جوهرية في موضوعها ومنهج دراستها، حيث تخلّت عن المنهج النظري وأخذت بالمنهج التطبيقي باعتبارها ظاهرة علميّة، إضافة إلى تحديد علاقة التأثير والتأثّر بينها وبين منظومة العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى. حيث أصبحت النظرة الشاملة تميّز المنهج الأنثروبولوجي، الذي يتطلّب دراسة أي موضوع – مهما كانت طبيعته وأهدافه– دراسة كليّة متكاملة، تحيط بأبعاده المختلفة، وبتلك التفاعلات المتبادلة بين أبعاد هذا الموضوع وجوانب الحياة

[1] أبو هلال، أحمد، مرجع سابق، 15.

الأخرى السائدة في المجتمع.

الأنثروبولوجيا هي فرع ينتمي للعلوم الاجتماعية الذي يسعى إلى تحديد مفهوم الكشف عن مجريات الأمور للثقافة من الناحية العملية والتحليلية .لقد تحولت الأنثروبولوجيا من مفهوم الثقافة المستخدمة كمرادف لكلمة "حضارة" تشمل مجموعة واسعة من الأنشطة البشرية لتنظير الثقافة ككائن للتفسير العلمي .

أولاً–مفهوم الأنثروبولوجيا:

لأول وهلة يتبين لنا من سماع كلمة الأنثروبولوجيا أنها تتكون جزئين، وهي باللغة الفرنسية تعني: Anthropologie وهي كلمة مشتقّة من الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين : أنثروبوس Anthropos، ومعناه " الإنسان " و لوجوس Locos، ومعناه " علم ". وبذلك يصبح معنى الأنثروبولوجيا من حيث اللفظ " علم الإنسان " أي العلم الذي يدرس الإنسان[1].

ولذلك، تعرّف الأنثروبولوجيا، بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان أو البشر عموما من حيث هو كائن عضوي حي، يعيش في مجتمع تسوده نظم وأنساق اجتماعية في ظلّ ثقافة معيّنة.. ويقوم بأعمال متعدّدة، ويسلك سلوكاً محدّداً؛ وهو أيضاً العلم الذي يدرس الحياة البدائية، والحياة الحديثة المعاصرة، ويحاول التنبّؤ بمستقبل الإنسان معتمداً على تطوّره عبر التاريخ الإنساني الطويل، ولذا يعتبر علم دراسة الإنسان

1 أبو هلال، أحمد. مرجع سابق، ص 19.

(الأنثروبولوجيا) علماً متطوّراً، يدرس الإنسان وسلوكه وأعماله[1]

كما تعرّف الأنثروبولوجيا بصورة مختصرة وشاملة بأنّها " علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً "[2] أي أنها علم يهتم بدراسة ماضي الفرد من آثار، وتقاليد، وأفعال، كيفية عيشه ضمن بيئة معينة، كيفية تفاعله مع الأحداث ودراسة رد فعله، ويهتم بدراسة الحاضر من خلال الحضارة التي يعيش في كنفها، وهل هو امتداد لسلفه أم أن هناك سلوكيات أخرى جديدة قد طرأت على نظام حياته، ويهتم بالمستقبل من حيث إمكانية التوقع ببعض السلوكيات التي قد يقوم بتعديلها أو حذفها مباشرة لأنها لا تتماشى والتغيرات العالمية المحيطة به.

فالأنثروبولوجيا بوصفها دراسة للإنسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية، فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة بعضها عن بعض، اختلاف علم التشريح عن تاريخ تطوّر الجنس البشري والجماعات العرقية، وعن دراسة النظم الاجتماعية من سياسيّة واقتصادية وقرابية ودينية وقانونية، وما إليها .. وكذلك عن الإبداع الإنساني في مجالات الثقافة المتنّوعة التي تشمل: التراث الفكري وأنماط القيم وأنساق الفكر والإبداع الأدبي والفني، بل والعادات والتقاليد ومظاهر السلوك في المجتمعات الإنسانية المختلفة، وإن كانت لا تزال تعطي

1 سليم، شاكر. مرجع سابق ص 25.
2 نفس المرجع، ص 56.

عناية خاصة للمجتمعات التقليدية[1].

إذن هي علم شامل يهتم بكل ما له علاقة بالفرد، من نظم اجتماعية وقيم عامة وخاصة، وضوابط العيش، العادات والتقاليد، وهذا ما يتوافق مع تعريف / تايلور/ الذي يرى أنّ الأنثروبولوجيا: "هي **الدراسة البيوثقافية المقارنة للإنسان** " إذ تحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للإنسان، وما يتلقاه من تعليم وتنشئة اجتماعية. وبهذا المعنى، تتناول الأنثروبولوجيا موضوعات مختلفة من العلوم والتخصّصات التي تتعلّق بالإنسان [2].

ثانياً-ماهية الأنثروبولوجيا:

إنّ الأمم والمجتمعات الأنجلوسكسونية، تطلق على علم الأنثروبولوجيا: " علم الإنسان وأعماله " بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالإنكليزية، على " دراسة الخصائص الجسمية للإنسان". ويصل هذا الاختلاف إلى طبيعة علم الأنثروبولوجيا.. فبينما يعني في أوروبا، الأنثروبولوجيا الفيزيقية، وينظر إلى علمي الآثار واللغويات كفرعين منفصلين، فإنّ الأمريكيين يستخدمون مصطلح (الإثنولوجيا أو الإثنوغرافيا) لوصف (الإثنوجرافيا الثقافية) والتي يطلق عليها البريطانيون (الأنثروبولوجيا الاجتماعية).

[1] أبو زيد، العيسي. الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي، الكويت: منشورات مجلّة العربي، العدد 46، 2001، ص 7

2 نفس المرجع، ص 22.

ففي إنكلترا مثلاً، يطلق مصطلح الأنثروبولوجيا، على دراسة الشعوب وكياناتها الاجتماعية، مع ميل خاص للتأكيد على دراسة الشعوب البدائية. أمّا في أمريكا، فيرى العلماء أنّ الأنثروبولوجيا، هي علم دراسة الثقافات البشرية البدائية والمعاصرة، في حين أنّ علماء فرنسا يعنون بهذا المصطلح، دراسة الإنسان من الناحية الطبيعية، أي " العضوية " [1].

فعلم الأنثروبولوجيا يركّز اهتمامه على كائن واحد، هو الإنسان، ويحاول فهم أنواع الظاهرات المختلفة التي تؤثّر فيه .. في حين تركّز العلوم الأخرى اهتمامها على أنواع محدّدة من الظاهرات أنّى وجدت في الطبيعة. وكان علم الأنثروبولوجيا، وما زال، يحاول فهم كلّ ما يمكن فهمه أو معرفته عن طبيعة هذا المخلوق الغريب الذي يسير على قدمين، وكذلك فهم سلوكه الذي يفوق طبيعته الجسمية غرابة .

ومع أنّ علماء الأنثروبولوجيا، استطاعوا استخدام بعض الأساليب التي طوّرتها العلوم الاجتماعية، فإنّهم قلّما اضطروا إلى انتظار تطوّر مثل هذه الأساليب. [2].. والواقع أنّ إسهامهم في تطوّر العلوم الاجتماعية، لا يقلّ شأناً عن إسهام هذه العلوم في تطوّر الأنثروبولوجيا. ولذلك، ينقسم علم الأنثروبولوجيا إلى قسمين أساسيين كبيرين : يبحث الأول في الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الطبيعية، في حين يبحث

1 كلاكهون، كلايد. الإنسان في المرآة، ترجمة: شاكر سليم، بغداد، 1964، ص 209.
[2] لينتون، رالف. الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة: عبد الملك الناشف، يروت: المكتبة العصرية1967، ص ص 15-16

الثاني في أعمال الإنسان، ويعرف بالأنثروبولوجيا الثقافية / الحضارية

واستناداً إلى هذه المنطلقات، فقد حدّدت الباحثة الأمريكية / مارغريت ميد/ طبيعة علم الأنثروبولوجيا وأبعاده، بقولها : " إنّنا نصنّف الخصائص الإنسانية للجنس البشري (البيولوجية والثقافية) كأنساق مترابطة ومتغيّرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطوّرة. كما نهتمّ أيضاً بوصف النظم الاجتماعية والتكنولوجية وتحليلها، إضافة إلى البحث في الإدراك العقلي للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته. وبصفة عامة، نسعى – نحن الأنثروبولوجيين –لتفسير نتائج دراساتنا والربط فيما بينها في إطار نظريات التطوّر، أو ضمن مفهوم الوحدة النفسيّة المشتركة بين البشر.. "[1]

وتأسيساً على ما تقدّم، فإنّ الأنثروبولوجيا هي العلم الذي يدرس الإنسان، ويدرس أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين الكائنات الحيّة الأخرى من جهة، وأوجه الشبه والاختلاف بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة أخرى.

وفي الوقت ذاته، يدرس السلوك الإنساني ضمن الإطار الثقافي والاجتماعي بوجه عام. فلا تهتمّ الأنثروبولوجيا بالإنسان الفرد، كما تفعل الفيزيولوجيا أو علم النفس، وإنّما تهتمّ بالإنسان الذي يعيش في جماعات وأجناس، وتدرس الناس في أحداثهم وأفعالهم الحياتية.

[1] فهيم، حسين. قصّة الأنثروبولوجيا – فصول في تاريخ علم الإنسان، الكويت: دار الهناء للنشر والتوزيع، 2005، ص 120.

ثالثاً– لماذا ندرس الأنثروبولوجيا:

استناداً إلى مفهوم الانثروبولوجيا وطبيعتها، فإنّ دراستها تحقّق مجموعة من الأهداف، يمكن حصرها في الأمور التالية:

1/3– وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفاً دقيقاً، وذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة أو الجماعة المدروسة، وتسجيل كلّ ما يقوم به أفرادها من سلوكيات في تعاملهم، في الحياة اليوميّة.

2/3– تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة، في سياق الترتيب التطوّري الحضاري العام للإنسان: (بدائي– زراعي– صناعي – معرفي –)

3/3– تحديد أصول التغيّر الذي يحدث للإنسان، وأسباب هذا التغيّر وعملياته بدقّة علمية.. وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة.

3/4– استنتاج المؤشّرات والتوقعّات لاتّجاه التغيير المحتمل، في الظواهر الإنسانية / الحضارية التي تتمّم دراستها، وبالتصوّر بالتالي لإمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة[1].

[1] لينتون، رالف. دراسة الإنسان، ترجمة: عبد الملك الناشف، بيروت: المكتبة العصرية، 1995، ص 15.

ويبدو أنّ التباين العرقي بين بني البشـــر، هو الخاصـــة البيولوجية التي تســـتأثر باهتمام العالِم الحديث، أكثر من ســـائر الخواص البيولوجية الأخرى عند الإنســـان. ويبذل المصـنّفون العرقيون محاولات دائبة للتوصّـل إلى تصـنيف عرقي مثالي. فكان من نتائج انشـغال علماء الأنثروبولوجيا الجسـمية بمشـكلة العرق، أن اكتسـب مفهوم النوع (العرق) رسوخاً أعاق التفكير بالكائن البشري ذاته. فالأصناف العرقية البشرية ظلّت، وإلى عهد قريب، تعتبر كيانات ثابتة نسبياً، وقادرة على الصـمود أمام تأثيرات البيئة أو قوى التغيّر الفطرية.

ويلاحظ أنّ التطرّف في تمجيـد فكرة العرق، أدّى إلى فرض عـدد محـدود من التصـنيفات الصـارمة على بني البشـر الذين يمتازون بتنوّع لا حدّ له، وأدّى بالتالي إلى زج الأفراد في هذه التصنيفات، بصورة تطمس صفاتهم الأصلية الخاصة. [1].

إنّ اهتمام الأنثروبولوجيا بدراســة المجتمعات الإنســانية كلّها، وعلى المســتويات الحضـارية كافة، يعتبر منطلقاً أسـاسـياً في فلسـفة علم الأنثروبولوجيا وأهدافها. ولكن على الرغم من التوسّـــع في مجال الدراســـات الأنثروبولوجية، فما زالت الاهتمامات التقليدية للأنثروبولوجيا، ولا سيّما وصف الثقافات وأسلوب حياة المجتمعات، ودراسة اللغات واللهجات المحلية وآثار ما قبل التاريخ، تؤكّد ولا شك، تفرّد مجال الأنثروبولوجيا عمّا عداها من العلوم الأخرى، ولا سيّما علم الاجتماع.[2]

[1] نفس المرجع السابق، ص 46.
[2] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 35.

ومن هنا كانت أهميّة الدراســـات الأنثروبولوجية في تحديد صـــفات الكائنات البشرية، وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها، بعيداً عن التعصّب والأحكام المسبقة التي لا تستند إلى أية أصول علمية.

وإذا كان علم الأنثروبولوجيا، بدراساته المختلفة، قد استطاع أن ينجح في إثبات الكثير من الظواهر الخاصة بنشأة الإنسان وطبيعته، ومراحل تطوّره الثقافي / الحضاري، فإنّ أهمّ ما أثبته هو، أنّ الشعوب البشرية بأجناسها المتعدّدة، تتشابه إلى حدّ التطابق في طبيعتها الأساسية، ولا سيّما في النواحي العضوية والحيوية.

الفصل الثاني – نشأة الأنثروبولوجيا وتاريخها

أولاً – العصر القديم

ثانياً– العصور الوسطى

ثالثاً– عصر النهضة الأوربية

أولاً–الأنثروبولوجيا في العصر القديم:

يجمع معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، على أنّ الرحلة التي قام بها المصريون القدماء في عام 1493 قبل الميلاد إلى بلاد بونت (الصومال حالياً) بهدف التبادل التجاري، تعدّ من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين الشعوب. وقد كانت الرحلة مؤلّفة من خمسة مراكب، على متن كلّ منها /31/ راكباً، وذلك بهدف تسويق بضائعهم النفيسة التي شملت البخور والعطور، ونتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام أفريقيا. وتأكيداً لإقامة علاقات معهم فيما بعد، فقد صوّرت النقوش في معبد الدير البحري، استقبال ملك وملكة بلاد بونت لمبعوث مصري.[1]

1–عند الإغريق (اليونانيين القدماء):

يعدّ المؤرخ الإغريقي (اليوناني) هيرودوتس Herodotus، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وكان رحالة محبّاً للأسفار، أول من صوّر أحلام الشعوب وعاداتهم وطرح فكرة وجود تنوّع وفوارق فيما بينها، من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية. ولذلك يعتبره معظم مؤرّخي الأنثروبولوجيا الباحث الأنثروبولوجي الأوّل في التاريخ.

فهو أول من قام بجمع معلومات وصفيّة دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية (حوالي خمسين شعباً)، حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم،

[1] Mauduit, J.A. Manuel d'Ethnographie, Payot, Paris, 2015, p29

وملامحهم الجسميّة وأصولهم السلالية. إضافة إلى أنّه قدّم وصفاً دقيقاً لمصر وأحوالها وشعبها، وهو قائل العبارة الشهيرة: "مصر هبة النيل ".[1]

وممّا يقوله في عادات المصريين القدماء: " إنّه في غير المصريين، يطلق كهنة الآلهة شعورهم، أمّا في مصر فيحلقونها. ويقضي العرف عند سائر الشعوب، بأن يحلق أقارب المصاب رؤوسهم في أثناء الحداد، ولكن المصريين إذا نزلت بساحتهم محنة الموت، فإنّهم يطلقون شعر الرأس واللحية "[2] .

وأمّا عن المقارنة بين بعض العادات الإغريقية والليبية، فيقول: " يبدو أنّ ثوب أثينا ودرعها وتماثيلها، نقلها الإغريق عن النساء الليبيات. غير أنّ لباس الليبيات جلدي، وأنّ عذبات دروعهن المصنوعة من جلد الماعز ليست ثعابين، بل هي مصنوعة من سيور جلد الحيوان. وأما ما عدا ذلك، فإنّ الثوب والدرع في الحاليتين سواء.. ومن الليبيين تعلّم الإغريق كيف يقودون العربات ذات الخيول الأربعة "[3]

واستناداً إلى هذه الإسهامات المبكرة والجادة، يعتقد الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا، أنّ منهج هيرودوتس في وصف ثقافات الشعوب وحياتهم وبعض نظمهم الاجتماعية، ينطوي على بعض أساسيات المنهج (الاثنوغرافي) المتعارف عليه

[1]Darnell, Regna. editor Reading in the History of Anthropology, University of Illinois, 1987, P 13

[2] خفاجة، محمد صقر. هيرودوت يتحدّث عن مصر، القاهرة: دار العلم، 1999، ص 120.

[3] خشيم، علي فهمي. نصوص ليبيّة، طرابلس، ليبيا: دار مكتبة الفكر، 1999، ص 87

في العصر الحاضر باسم (علم الشعوب).

وكذلك نجد أنّ أرسطو (348- 322 ق.م) كان من أوائل الذين وضعوا بعض أوليات الفكر التطوّري للكائنات الحيّة، وذلك من خلال ملاحظاته وتأمّلاته في التركيبات البيولوجية وتطوّرها في الحيوان .. كما ينسب إليه أيضاً، توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها وأفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والإنسانية.[1]

إنّ الدارس أعمال الفلاسفة اليونانيين يصل إلى معلومة طريفة وذات صلة بالفكر الأنثروبولوجي، وهي: أنّ اليونانيين أخذوا الكثير من الحضارات التي سبقتهم، حيث امتزجت فلسفتهم بالحضارة المصرية القديمة، وتمخّض عنها ما يعرف باسم " الحضارة الهيليلنية " تلك الحضارة التي سادت وازدهرت في القرون الثلاثة السابقة للميلاد.

وعلى الرغم من هذا الطابع الفلسفي الذي يناقض – إلى حدّ ما – ما تتّجه إليه الدراسات الأنثروبولوجية والسوسيولوجية (علم الاجتماع) من دراسة ما هو قائم، لا ما يجب أن تكون عليه الأحوال الاجتماعية والثقافية، فإنّ فضل الفكر الفلسفي اليوناني، ولا سيّما عند كبار فلاسفتهم، لا يمكن التقليل من شأنه أبداً.

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 46.

2- عند الرومان:

امتدّ عصر الإمبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل وأفكار حول بناء المجتمعات الإنسانية وطبيعتها، وتفسير التباين والاختلاف فيما بينها.. ولكنّهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية/ المجرّدة للحياة الإنسانية، بل وجّهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس. ومع ذلك، لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره كإسهامات أصيلة في نشأة علم مستقلّ لدراسة الشعوب وثقافاتهم، أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات .

ولكن، يمكن أن يستثنى من ذلك، أشعار /كاروس لوكرتيوس / التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية الهامة. فقد تناول موضوعات عدّة عرضها في ستة أبواب رئيسة، ضمنّها أفكاره ونظرياته عن المادة وحركة الأجرام السماوية وشكلها، وتكوين العالم .. وخصّص الباب السادس لعرض فكرتي : التطوّر والتقدّم، حيث تحدّث عن الإنسان الأوّل والعقد الاجتماعي، ونظامي الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والتقاليد والفنون والأزياء والموسيقى .[1]

وقد رأى بعض الأنثروبولوجيين، أنّ /لوكرتيوس / استطاع أن يتصوّر مسار البشرية في عصور حجرية ثمّ برونزية، ثمّ حديدية .. بينما رأى بعضهم الآخر في فكر لوكرتيوس، تطابقاً مع فكر لويس مورجان –L. Morgan

[1] نفس المرجع السابق، ص 48.

(1818-1881) أحد أعلام الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر. وذلك من حيث رؤية التقدّم والانتقال من مرحلة إلى أخرى، في إطار حدوث طفرات مادية، وإن كان مردّها في النهاية إلى عمليات وابتكارات عقلية [1].

وإذا استثنينا أشعار / لوكرتيوس / هذه وما احتوتها من أفكار تتعلّق بطبيعة الكون ونشأة الإنسان وتطوّره، فإنّه من الصعوبة بمكان أن تنسب نشأة علم الأنثروبولوجيا إلى الفكر الروماني القديم، كما هي الحال عند الإغريقيين .

وعلى الرغم من أنّ الرومان اهتموا بالواقع، من حيث ربط السلالات البشرية بإمكانية التقدّم الاجتماعي والحركة الحضارية، فقد وجدوا في أنفسهم امتيازاً وأفضلية على الشعوب الأخرى. فكان الروماني فوق غيره بحكم القانون، حتى أنّ الرومان إذا أرادوا أن يرفعوا من قدر إنسان أو شأن سلالة، أصدرت الدولة قراراً بمنح الجنسية الرومانية لأي منهما[2] ويبدو أنّ هذا الاتجاه العنصري، وجد في معظم الحضارات القديمة، ولا سيّما الحضارات الشرقية : الإغريقية والرومانية والصينية .

3-عند الصينيين القدماء:

يعتقد بعض المؤرّخين، ولا سيّما الأنثروبولوجيون منهم، أنّه على الرغم من اهتمام

[1] Darnell, p.15

[2] مؤنس، محمد. الحضارة – دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها، الكويت: عالم المعرفة، 1978، ص 43.

الصينيين القدماء بالحضارة الرومانية وتقديرها، فلم يجدوا فيها ما ينافس حضارتهم.

كان الصينيون القدماء يشعرون بالأمن والهدوء داخل حدود بلادهم، وكانوا مكتفين ذاتياً من الناحية الاقتصادية المعاشية، حتى أن تجارتهم الخارجية انحصرت فقط في تبادل السلع والمنافع، من دون أن يكون لها تأثيرات ثقافية عميقة. فلم يعبأ الصينيون في القديم بالثقافات الأخرى خارج حدودهم، ومع ذلك، لم يخلُ تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية، والتي كانت تتّسم بالازدراء والاحتقار.[1]

وهذا الاتّجاه نابع من نظرة الصينيين القدماء العنصرية، إذ كانوا يعتقدون – كالرومان – أنّهم أفضل الخلق، وأنّه لا وجود لأيّة حضارة أو فضيلة خارج جنسهم، بل كانوا يرون أنّهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء .. ولكي يؤكّد ملوكهم هذا الواقع، أقاموا " سور الصين العظيم " حتى لا تدنّس أرضهم بأقدام الآخرين.([2]

ولذلك، اهتمّ فلاسفة الصين القدماء، بالأخلاق وشؤون المجتمعات البشرية، من خلال الاتجاهات الواقعية / العملية في دراسة أمور الحياة الإنسانية ومعالجتها، لأنّ معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي، في أي مجتمع، تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، والذي يكشف بالتالي عن طرائق التعامل فيما بينهم من جهة، ويحدّد أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى.

[1] Darnell, p.25

[2] مؤنس، محمد. مرجع سابق، ص 22.

وهذا ما يفيد الباحثين في العلوم الأخرى، ولا سيّما تلك التي تعنى بالإنسان.

ثانياً– الأنثربولوجيا في العصور الوسطى

يجمع معظم المؤرّخين أن هذه العصور، تمتدّ من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي. وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى كونها ارتبطت بتدهور الحضارة الأوربية وارتداد الفكر إلى حقبة مظلمة من جهة، ولأنّها من جهة وقعت بين عهدين هما: نهاية ازدهار الفلسفات الأوربية القديمة (اليونانية والرومانية) وبداية عصر النهضة الأوربية (عصر التنوير) والانطلاق إلى مجالات جديدة من استكشاف العوالم الأخرى، وإحياء التراث الفكري القديم، وإبداعات في الفنون والآداب المختلفة، في الوقت الذي كانت فيه الحضارة العربية الإسلامية تزدهر، وتتّسع لتشمل مجالات العلوم المختلفة .

1– العصور الوسطى في أوربا:

يذكر المؤرّخون أنّه في هذه العصور الوسطى (المظلمة) تدهور التفكير العقلاني، وأدينت أيّة أفكار تخالف التعاليم المسيحيّة، أو ما تقدّمه الكنيسة من تفسيرات للكون والحياة الإنسانية، سواء في منشئها أو في مآلها. ولكن إلى جانب ذلك، كانت مراكز أخرى وجّهت منطلقات المعرفة، وحدّدت طبيعة الحضارة الغربية في تلك العصور، كبلاط الملوك مثلاً، الذي كان يضمّ في العادة، فئات من المثقفين كرجال الإدارة

والسياسة والشعراء. [1]

يضاف إلى ذلك التوسّع في دراسة القانون (جامعة بولونيا) ودراسة الفلسفة واللاهوت (جامعة باريس) ممّا كانت لـــه آثار واضـــحة في الحياة الأوربية العامة (السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية) ومهّد بالتالي للنهضة التي شهدتها أوروبا بعد هذه العصور.

لقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدّة للكتابة عن بعض الشـــعوب، إلاّ أنّها اتّسمت – غالباً- بالوصف التخيّلي، بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع. مثال ذلك، ما قام به الأسقف / إسيدور Isidore / الذي عاش ما بين (560-636) حيث أعدّ في القرن الســابع الميلادي موســوعة عن المعرفة، وأشــار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم، ولكن بطريقة وصفية عفوية، تتّسم بالسطحية والتحيّز.

وممّا ذكره، أنّ قرب الشـــعوب من أوربا أو بعدها عنها، يحدّد درجة تقدّمها، فكلّما كانت المسافة بعيدة، كان الانحطاط والتهور الحضاري مؤكّدا لتلك الشعوب. ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية، بأنّهم من سلالات غريبة الخَلق، حيث تبدو وجوههم بلا أنوف .

وقد ظلّت تلك المعلومات ســائدة وشــائعة حتى القرن الثالث عشــر، حيث

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 50.

ظهرت موسوعة أخرى أعدّها الفرنسي / باتولو ماكوس Batholo Macus/، والتي حظيت بشعبية كبيرة، على الرغم من أنّها لم تختلف كثيراً عن سابقتها في الاعتماد على الخيال .[1]

2- العصور الوسطى عند العرب:

وتمتدّ من منتصف القرن السابع الميلادي، وحتى نهاية القرن الرابع عشر تقريباّ. حيث بدأ الإسلام في الانتشار، وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية آنذاك بالتكوين والازدهار. وقد تضمّنت هذه الحضارة: الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية .[2]

وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم .

ولذلك، برز العرب في وضع المعاجم الجغرافية، كمعجم (البلدان) لياقوت الحموي. وكذلك إعداد الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) مثل " مسالك الأمصار " لإبن فضل الله العمري، و " نهاية الأرب في فنون العرب " للنويري .

[1] نفس المرجع السابق، ص 52.

[2] Darnell, p.36.

وإلى جانب اهتمّام هذه الكتب الموسوعية بشؤون العمران ، فقد تميّزت مادتها بالاعتماد على المشاهدة والخبرة الشخصيّة، وهذا ما جعلها مادة خصبة من ناحية المنهج الأنثروبولوجي في دراسة الشعوب والثقافات الإنسانية .

وهناك من تخصّص في وصف إقليم واحد مثل/ البيروني/ الذي عاش ما بين (362 – 440 هجرية) ووضع كتاباً عن الهند بعنوان " تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " .وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية. واهتمّ أيضاً بمقارنة تلك النظم والسلوكيات الثقافية، بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس. وأبرز البيروني في هذا الكتاب، حقيقة أنّ الدين يؤدّي الدور الرئيس في تكبيل الحياة الهندية، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات، وصياغة القيم والمعتقدات.[1]

كما كانت لرحلات ابن بطوطة وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكياتهم وقيمهم وتقاليدهم. فمّما كتبه في استحسان أفعال أهل السودان: " فمن أفعالهم قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاضب. ومنها عدم تعرّضهم لمال من يموت في بلادهم من البيضان (البيض والأجانب) ولو كان القناطير

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 54.

المقنطرة. وإنّما يتركونه بيد ثقة من البيضان، حتى يأخذه مستحقّه.[1]

أمّا كتاب ابن خلدون " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " فقد نال شهرة كبيرة وواسعة بسبب مقدّمته الرئيسة وعنوانها : " في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان، والكسب والمعاش والمصانع والعلوم، وما لذلك من العلل والأسباب ". وتعتبر هذه المقدّمة عملاً أصيلاً في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال أفريقيا، ولا سيّما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كلّ ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة. وقد شكّلت موضوعات هذه المقدّمة – فيما بعد – اهتماماً رئيسياً في الدراسات الأنثروبولوجية.

ومن أهمّ الموضوعات التي تناولها ابن خلدون في مقدّمته، والتي لها صلة باهتمامات الأنثروبولوجيا، هي تلك العلاقة بين البيئة الجغرافية والظواهر الاجتماعية. فقد ردّ ابن خلدون – استناداً إلى تلك الدعامة – اختلاف البشر في ألوانهم وأمزجتهم النفسيّة وصفاتهم الجسمية والخَلَقية، إلى البيئة الجغرافية التي اعتبرها أيضاً عاملاً هاماً في تحديد المستوى الحضاري للمجتمعات الإنسانية.[2] كما تناول ابن خلدون في مقدّمته أيضاً، مسألة قيام الدول وتطوّرها وأحوالها، وبلور نظرية (دورة العمران) بين

[1] ابن بطوطة، أبو عبد الله. رحلة ابن بطوطة، تحقيق: البشير محمد سعيد، بيروت : دار التراث، 1968، ص 672.

[2] ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدّمة ابن خلدون، تحقيق :علي عبد الواحد وافي، القاهرة ،1968، 291.

البداوة والحضارة على أساس المماثلة بين حياة الجماعة البشرية وحياة الكائن الحي.

وقد سيطرت هذه الفكرة على أذهان علماء الاجتماع في الشرق والغرب – على حدّ سواء – في العصور الوسطى .. حيث اعتبر ابن خلدون أن التطوّر هو سنّة الحياة الاجتماعية، وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية.

يقول في ذلك : " إنّ أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم، لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقرّ، وإنّما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال. وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول.[1] فعمر الدول عند ابن خلدون كعمر الكائن البشري، تبدأ بالولادة وتنمو إلى الشباب والنضج والكمال، ثمّ تكبر وتهرم وتتلاشى إلى الزوال .

لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، ودورة الحضارات التي تمرّ بها، فكان بذلك، أسبق من علماء الاجتماع في أوروبا. ولذلك، يرى بعض الكتّاب والمؤرّخين، أن ابن خلدون يعتبر المؤسّس الحقيقي لعلم الاجتماع، بينما يرى بعضهم الآخر، ولا سيّما علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون، في مقدّمة ابن خلدون بعضاً من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومناهجها .وفي أمريكا، أشار /جون هونجيمان / أيضاً في كتابه " تاريخ الفكر الأنثروبولوجي " إلى أنّ ابن خلدون تناول بعض الأفكار ذات الصلة بنظرية / مارفين هاريس / عن " المادية الثقافية –

[1] نفس المرجع السابق، ص 252.

Cultural Materialism " ونجد أنّ / هاريس / ذاته، يذكر أنّ ابن خلدون ومن قبله الإدريسي، قدّما أفكاراً ومواد ساعدت في بلورة نظرية الحتمية الجغرافية، التي سادت إبّان القرن الثامن عشر[1]

واستناداً إلى ما تقدّم يمكن القول: إنّ الفلاسفة والمفكّرين العرب أسهموا بفاعلية – خلال العصور الوسطى– في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات الأنثروبولوجية، ولا سيّما التنوّع الثقافي (الحضاري) بين الشعوب، سواء بدراسة خصائص ثقافة أو حضارة بذاتها، أو بمقارنتها مع ثقافة أخرى. ولكن على الرغم من اعتبارها مصادر للمادة الأثنوغرافية التي درست (أسلوب الحياة في مجتمع معيّن وخلال فترة زمنية محدّدة) ولا سيّما العادات والقيم وأنماط الحياة، فإنّ الأنثروبولوجيا التي تبلورت في أواخر القرن التاسع عشر كعلم جديد معترف به، لم تكن ذات صلة تذكر بهذه الدراسات، ولا بغيرها من الدراسات (اليونانية والرومانية) القديمة .

ثالثاً– الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية

يتّفق المؤرّخون على أنّ عصر النهضة في أوربا، بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوروبيون بعملية دراسة انتقائية للعلوم والمعارف الإغريقية

[1]Anderson, John . Conjuring with Ibn Khaldon: from an anthropological point of view, Leiden, 1984, P 112.

والعربية ، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية. وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي، في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر .

إنّ هذه التغيّرات مجتمعة أدّت إلى ترسيخ عصر النهضة أو ما سمّي (عصر التنوير) وأسهمت بالتالي في بلورة الانثربولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر، كعلم يدرس تطوّر الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني. الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضاراتها، في أوروبا وخارجها، من أجل المقارنات، والتعرّف إلى أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطوريّة معيّنة، بحيث يضع ذلك أساساً لنشأة علم الأنثروبولوجيا .

لعلّ أهمّ رحلة أو(رحلات) استكشافيّة مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا، ما قام بها / كريستوف كولومبوس /إلى القارة الأمريكية ما بين (1492- 1502) حيث زخرت مذكّراته عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد، بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها، اتّسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة .

وممّا قاله في وصف سكان جزر الكاريبيان في المحيط الأطلسي : " إنّ أهل تلك الجزر كلهم عراة تماماً، الرجال منهم والنساء، كما ولدتهم أمَّهاتهم. ومع ذلك فثمّة بعض النساء اللواتي يغطين عورتهنّ بورق الشجر، أو قطعة من نسيج الألياف تصنع

لهذا الغرض. ليست لديهم أسلحة ومواد من الحديد أو الصلب وهم لا يصلحون لاستخدامها على أيّة حال. ولا يرجع السبب في ذلك إلى ضعف أجسادهم، وإنّما إلى كونهم خجلون ومسالمون بشكل يثير الإعجاب.. [1]"

وكتب في وصفه لسكان أمريكا الأصليين: " إنّهم يتمتّعون بحسن الخَلق والخُلُق، وقوّة البنية الجسدية. كما أنّهم يشعرون بحرية التصرّف فيما يمتلكون، إلى حدّ أنّهم لا يتردّدون في إعطاء من يقصدهم أيّاً من ممتلكاتهم، علاوة على أنّهم يتقاسمون ما عندهم برضى وسرور .." [2]

وهكذا كان لرحلات كولومبس واكتشافه العالم الجديد (أمريكا) عام 1492أثرها الكبير في إدخال أوروبا حقبة جديدة، وفي تغيير النظرة إلى الإنسان عامة، والإنسان الأوروبي خاصة، ممّا أثّر بالتالي في الفكر الأنثروبولوجي. وذلك لأنّ هذه الاكتشافات الجغرافية / الاجتماعية وما تبعها من معرفة سكان هذه الأرض بميزاتهم وأنماط حياتهم، أظهرت بوضوح تنوّع الجنس البشري، وأثارت كثيراً من المسائل والدراسات حول قضايا النشوء والتطوّر عند الكائنات البشرية.

لقد تميّز عصر النهضة الأوربية، بظاهرة كان لها تأثير في توليد نظريات جديدة

1 Oswalt, Wendell. Other People , Other Customs , Holt Rinehart and Winston In, 1972, P 62.

2 Boorstin, Daniel .J. The Discoveries A History Of Man's Search to Know his World and Himself .Vintage Books edition, 1983, P 28

عن العالم والإنسان، وهي أنّ المفكّرين اتفقوا، على الرغم من تباين وجهات نظرهم، على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية، التي أعاقت فضول العقل الإنساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الإنسان الجسدية والعقلية والأخلاقية. [1]

وظهر نتيجة لهذا الموقف الجديد اتّجاه لدراسة الإنسان، عرف بالمذهب الإنساني (العلمي) اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر، حيث اتّجهت دراسة الطبيعة الإنسانية وفهم ماهيتها وأبعادها وفق المراحل التاريخية/ التطوّرية للإنسان.

وقد تبلور هذا الاتّجاه (المذهب) العلمي في الدراسات التجريبية والرياضية، التي ظهرت في أعمال بعض علماء القرن السابع عشر، من أمثال: فرانسيس بيكون F.Becon (1561-1626) وريني ديكارت R.Decartes (1596-1650) واسحق نيوتن I. Newton (1642-1727)، وغيرهم. حيث أصبحت النظرة الجديدة للإنسان عل أنّه ظاهرة طبيعية، ويمكن دراسته من خلال البحث العلمي والمنهج التجريبي، ومعرفة القوانين التي تحكم مسيرة التطوّر الإنساني والتقدّم الاجتماعي. وهذا ما أسهم في تشكيل المنطلقات النظرية للفكر الاجتماعي، وأدّى بصورة تدريجية إلى بلورة البدايات النظرية للأنثروبولوجيا، خلال عصر التنوير.

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 86.

أمّا بالنسبة للدراسات الأثنوجرافية (دراسة أسلوب الحياة والعادات والتقاليد) والدراسات الأثنولوجية (دراسة مقارنة لأساليب الحياة للوصول إلى نظرية النظم الاجتماعية)، والدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، فثمةّ أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء .

وقد تكون محاولة الرحالة الإسباني (جوزيه آكوستا J. Acosta) في القرن السادس عشر، لربط ملاحظاته الشخصيّة عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الأثنوجرافية والتنظير بشأنها.

فقد افترض "آكوستا" أنّ الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلاً من آسيا إلى أمريكا، وبذلك فسّر اختلاف حضاراتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوروبا حينذاك. وقدّم "آكوستا " أيضاً افتراضاً آخر حول تطوّر الحضارة الإنسانية عبر مراحل معيّنة، معتمداً في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة والكتابة.

وقد وقفت أوروبا في أعلى الترتيب، وأتت بعدها الصين في المرتبة الثانية لمعرفتها الكتابة، بينما جاءت المكسيك في مرتبة أدنى من ذلك .. وصنّفت المجتمعات الأخرى بدرجات متباينة في المواقع الأدنى من هذا الترتيب.[1] وربّما شكّل هذا التصنيف أساساً استند إليه الأنثروبولوجيون – فيما بعد– للتمييز بين المجتمعات .

وظهر إلى جانب "آكوستا" / الإسباني في الدراسة الأثنوجرافية عن الشعوب

[1] Darnell,1978, p.81

البدائية، عالم الاجتماع الفرنسي، "ميشيل دي مونتاني" M.De. Montaigne الذي عاش ما بين (1532-1592) وأجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا المكتشفة، والذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوربا. وبعد إن جمع منهم المعلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي، خرج بالمقولة التالية: " إنّه لكي يفهم العالم فهماً جيّداً، لا بدّ من دراسة التنوّع الحضاري للمجتمعات البشرية واستقصاء أسباب هذا التنوّع " ويكون بذلك قد طرح فكرة (النسبية الأخلاقية).

وممّا قاله في هذا الإطار ما كتبه في مقاله الشهير عن " أكلة لحوم البشر " وجاء فيه: " يبدو أنّ ليس لدينا أي معيار للحقيقة والصواب، إلاّ في إطار ما نجده سائداً من آراء وعادات على الأرض التي نعيش عليها (أوروبا)، حيث نعتقد بوجود أكمل الديانات، وأكثر الطرائق فاعلية في الحصول على الأشياء.

إنّ هؤلاء الناس (أكلة لحوم البشر) فطريون / طبيعيون، مثل الفاكهة البريّة. فقد بقوا على حالهم البسيطة، كما شكّلتهم الطبيعة بطريقتها الخاصة، وتحكّمت فيهم قوانينها وسيّرتهم." [1] ومن هذه الرؤية، لاقى كتابه الشهير " المقالات " الصادر عام 1579، اهتماماً كبيراً لدى مؤرخي الفكر الأوروبي عامة، والفكر الفرنسي خاصة.

ويأتي القرن الثامن عشر، ليحمل معه كتابات "جان جاك روسو" .J.J

[1] Leach, Edmund. Social Anthropology, Fontana- Paper backs, 1982, P 67.

Rossow، التي احتلّت أهميّة كبيرة لدى مؤرّخي علم الأنثروبولوجيا، وذلك بالنظر لما تضمنته في دراستها الأثنوجرافية للشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الغربية / الأوروبية.

لقد تميّزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند "روسّو" بالتجرّد والموضوعية، حيث تجلّى ذلك في نقد بعض القيم والجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسان بعض الطرائق الحياتية في المجتمعات الأخرى. وفي هذا الإطار، يعدّ كتابه " العقد الاجتماعي" من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي.

وكان إلى جانب "روسّو"، البارون دي مونتسكييه"، الذي وضع كتاب (روح القوانين) وأوضح فيه فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة. وسادت هذه الفكرة الترابطية في أعمال الأنثروبولوجين في أوائل القرن العشرين، ولا سيّما عند الأنثروبولوجيين الإنجليز، حيث انتقل اهتمام مونتسكييه بدراسة النظم السياسية، وتأثير المناخ على نوعيّة الحضارة أو الثقافة – فيما بعد – إلى الكتابات الأنثروبولوجية، وشكّل مجالاً واسعاً للدراسات الأنثروبولوجية[1]

أمّا في ألمانيا، فقد تبلور الفكر في عصر التنوير، عن التفوّق العنصري والنزعة القوميّة الشوفينيّة (التعصبيّة). وظهر ذلك واضحاً في كتابات كلّ من / جورج هيجل (1770-1831) وجوهان فختة (1762-1814)، حيث جعلا الشعب

[1] Darnell,1978, p.87

الألماني، الشعب الأمثل والأنقى بين شعوب العالم.

أمّا كتابات "جوهان هيردر" (1744-1803) فجاءت لتعزّز فكرة التمايز بين السلالات البشرية من ناحية التركيب الجسمي، والتفاوت فيما بينها بمدى التأثّر بمظاهر المدنية، وفي تمثّلها لمقوّمات الحضارة. وعلى هذا الأساس، يذهب "هيردر" إلى أنّ ثمّة سلالات بشرية خلقت للرقي، وسلالات أخرى قضي عليها بالتأخّر والانحطاط.[1]

لكن هذا الاتجاه العنصري في الدراسات الأنثربولوجية، واجه انتقادات كبيرة في بداية القرن العشرين ، حيث برزت فكرة أنّه لا يجوز أن تتّخذ اللغة كأساس أو دليل على الانتماء إلى أصل سلالي واحد، وأنّ العلاقة بين الجنس البشري واللغة، لا يجوز أن تكون أساساً لتقسيم الشعوب الإنسانية إلى سلالات متمايزة. وقد نقض ذلك ودحضه، فيما بعد، الفكر الأنثروبولوجي القائم على المشاهدة الواقعية، والدراسة الميدانية المقارنة لمجتمعات الشعوب الأخرى.

وهنا يمكن القول: إنّ الأنثروبولوجيا المتحرّرة التي ظهرت اتّجاهاتها وقضاياها الانسانية، منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، تجد – ولا شكّ – في الكتابات الفرنسية في عصر التنوير، جذوراً أو أصولاً نظرية لمنطلقاتها الفكرية.[2]

[1] الخشاب، أحمد. دراسات أنثروبولوجية، القاهرة: دار المعارف، 1970، ص 375.
[2] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 101.

وتأسيساً على ما تقدّم، يمكن القول: إنّ الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوروبا في عصر التنوير، وتجلّى في كتابات العديد من الفلاسفة والباحثين والمؤرّخين، شكّل الملامح النظرية الأولى لعلم الأنثروبولوجيا، الذي بدأ يستقل بذاته مع بدايات القرن العشرين، ويتبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته.

الفصل الثالث: علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى

على الرغم من الاعتراف بالأنثروبولوجيا كعلم مستقلّ بذاته، يدرس الإنسان من حيث نشأته وتطوّره وثقافته، فما زال العلماء، ولا سيّما علماء الإنسان يختلفون حول تصنيف هذا العلم بين العلوم المختلفة .. فيرى بعضهم أنّه من العلوم الاجتماعية، كعلم النفس والاجتماع والتاريخ والسياسة. ويرى بعضهم أيضاً أنّه من العلوم التطبيقية، كالرياضيات والطب والفلك. بينما يرى بعضهم الآخر أنّه من العلوم الإنسانية، كالفلسفة والفنون والديانات ..

لكن هذه العلوم كلّها دخلت على مرّ التاريخ الثقافي لشعب ما، إلى جسد هذه الثقافة وأصبحت جزءاً منها، ومكوّناً من مكوّناتها، الأمر الذي أدى في النهاية إلى اختلاف الثقافات بين المجتمعات البشرية، ومن هنا كان علم الأنثروبولوجيا، ذا صلة بكثير من العلوم أخرى.

فعلم الأنثروبولوجيا اضطرّ المرة تلو المرّة، إلى الانتظار ريثما تنجح العلوم الطبيعية في استجلاء نقطة معيّنة عن طريق التجارب التي تجرى على الحيوانات، وممّا لا شكّ

فيه أنّ نتائج الأبحاث التي أجراها علماء الوراثة على الجرذان وذباب الأشجار المثمرة، هي التي مهّدت الطريق لفهم قوانين الوراثة عند الكائنات البشرية، ولجلاء المشكلات المختلفة المتّصلة بما يسمّى (العروق أو الأجناس البشرية). غير أنّنا من جهة أخرى، نستطيع القول: إنّ الحقائق التي اكتشفتها العلوم الطبيعية، لا تساعد كثيراً في فهم طبيعة السلوك الإنساني، وذلك لأنّ معظم الظاهرات السلوكية البشرية لا تجد ما يماثلها مماثلة وثيقة على الصعيد الحيواني.

ويصدق هذا بوجه خاص على الظاهرات المتّصلة بالحياة الاجتماعية المنظّمة. فمع أنّ علماء الأنثروبولوجيا استطاعوا استخدام بعض الأساليب التي طوّرتها العلوم الاجتماعية، فإنّهم قلّما اضطرّوا إلى انتظار تطوّر مثل هذه الأساليب. والواقع أنّ إسهامهم في تطوّر العلوم الاجتماعية، لا يقلّ شأناً عن إسهام هذه العلوم في تطوّر الأنثروبولوجيا.[1]

وسنكتفي بتبيان صلة الأنثروبولوجية بعلم الأحياء، وعلم الاجتماع وعلم الفلسفة، وعلم النفس، وعلم الجيولوجيا والجغرافيا، ونترك صلتها بالعلوم الأخرى لأنّها سترد في الفصول اللاحقة، من خلال عرض فروع الأنثروبولوجيا.

[1] لينتون، رالف. الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، مرجع سابق، ص 16.

الفصل الثالث: علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى

أولاً –علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء

ثانياً–علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع

ثالثاً–علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الفلسفة

رابعاً– علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس

خامساً–علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجيولوجيا والجغرافيا

أولاً– علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الأحياء / البيولوجيا Biology

يتناول علم الأحياء دراسة الكائنات الحيّة من وحيد الخلية الأبسط تركيباً، وحتى كثير الخلايا والأكثر تعقيداً، ولذلك يعرّف بأنّه: العلم الذي يدرس الإنسان كفرد قائم بذاته، من حيث بنية أعضائه وتطوّرها.[1]

ويرتبط علم الأحياء بالعلوم الطبيعية، ولا سيّما علم وظائف الأعضاء والتشريح وحياة الكائن الحي، وتدخل في ذلك نظرية التطوّر التي تقول بأن أجسام أجناس الكائنات الحيّة وأنواعها ووظائف أعضائها، تتغيّر باستمرار ما دامت هذه الكائنات تتكاثر وتنتج أجيالاً جديدة، قد تكون أرقى من الأجيال السابقة، كما هي الحال عند الإنسان.

كما تستند هذه النظرية إلى أنّ الإنسان بدأ كائناً حيّاً بخلية واحدة، تكاثرت في إطار بنيته العامة، إلى أن انتهى إلى ما هو عليه الآن من التطوّر العقلي والنفسي والاجتماعي، وهذا ما دلّت عليه بقايا عظام الكائنات الحيّة المكتشفة في الحفريات الأثرية.

فالأنثروبولوجيا، من الناحية النظرية، شديدة القرب من البيولوجيا؛ فكلاهما يدرس عملية إعادة إنتاج الحياة، وكلاهما مبنيّ على نموذج نظري للتنوّع، وكلّ في تخصّصه.

[1] لينتون، رالف. الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، مرجع سابق، ص 18.

لكنّ نتائج الحوار في الدراسة الميدانية، أدّت كما يقول /كارلوس سافيدرا/ إلى أنّ المبادىء التي تأسّست عليها نظرية التطوّر تتبع من الناحية المنطقية والمنهجيّة، تواليا أو نموذجاً، يسير من الثبات إلى التغيّر.. فبنو الإنسان من أصل واحد، سواء أكان التطوّر بالتعبير التطوّري أو بتركيب الحمض النووي بالتعبير التزامني .. ولكن هناك أيضاً – في الوقت نفسه – تشوّهات وتغيّرات مختلفة الأشكال، بنيوية وتركيبية بالمصطلح الأنثروبولوجي.[1]

ويحظى تحليل التنوّع في العلمين، بدور حيوي: التنوّع الجيني في علم (البيولوجيا) والتنوّع الاجتماعي في (الأنثروبولوجيا)، فالتنوّع أمر أساسي لما تسمّيه البيولوجيا " الفاعلية البيولوجية " وهي القدرة على مواصلة الحياة، وإخلاف الذرية. والأمر ذاته نجده في الأنثروبولوجيا فيما يطلق عليه: إشباع الحاجات الأساسية. [2]

يعدّ / داروين / رائد علم الأحياء، الذي استند فيه إلى نظرية (النشوء والارتقاء) في حياة الإنسان، والتي قدّم لها تفسيراً منهجياً معقولاً، يتلخّص في الأمور التالية:

1-إنّ عمليات الحياة المتتابعة بمعطياتها وظروفها، تنتج كائنات مختلفة عن أصولها.. أي أنّ أنواع هذه الكائنات لا تتكرّر هي ذاتها من خلال التكاثر، بل تتنوّع في أشكالها ومظاهرها.

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 120.
[2] الخشاب، أحمد، مرجع سابق، ص 96.

2- إنّ الخصـــائص التي تتمتّع بها بعض الكائنات الحيّة، تجعلها أكثر قدرة على البقاء من بعضـها الآخر، حيث تسـتطيع التلاؤم مع الظروف البيئيّة الخاصـة التي تحيط بها.

3-إنّ الكـائنـات الحيّـة الجـديـدة، الأكثر قـدرة ورقيّـاً، تمتلـك عوامـل التكـاثر والاستمرار على قيد الحياة، لفترة أطول ممّا هي عند بعض الكائنات الضعيفة الأخرى، التي تتعرّض للانقراض السريع.

4-إنّ بعض الخصائص البيولوجية (الصفات المهلكة) عند بعض أنواع الكائنات الحيّة تؤدّي إلى موتها بصورة سريعة، وربّما مباشرة، إذا لم تكن هذه الخصائص تؤهّلها للتكيّف مع الظروف البيئيّة. وهذا ما يؤثّر ســـلباً في نســـل هذه الكائنات من حيث البنية والمقاومة.

واسـتناداً إلى هذه المبادىء التي قدّمها دارون في أصـل الكائنات الحيّة وتطوّرها، وصولاً إلى وضع الإنسان الحالي، اكتشف العلماء قوانين الوراثة وما يتبعها من الجينات (الخلايا) التي تحمل صفات الإنسان، وتنقلها من الآباء إلى الأبناء، من خلال التلقيح والتكاثر. وهذا ما جعل علماء الأنثروبولوجيا يعتقدون بأن الجنس البشـري مرّ بمراحل تطوّرية عديدة، حتى وصل إلى الإنسان (الحيوان الناطق والعاقل).

ومهمـا يكن الأمر، فـإنّ النقـاش مـا زال مفتوحـاً حول دور الأنثروبولوجيـا في الدراسـات الخاصـة بتطوّر الإنسـان هذا التطوّر الذي يدخل في الإطار التاريخي، ولكن

بطبيعة بيولوجية، لا بدّ من دراسة مبادئها ومظاهر تغيّرها.

ثانياً– علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع

يعدّ علم الاجتماع من أحدث العلوم الأساسية وأهم العلوم الإنسانية. لذلك، يعرّف بأنّه: العلم الذي يدرس الحياة الاجتماعية بجميع مظاهرها، ويتحرّى أسباب الحوادث الاجتماعية وقوانين تطوّرها. [1]

ويعرّف بصورة أوسع، بأنّه: أحد العلوم الإنسانية الهامة التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، وهو من العلوم التي تحاول الوصول إلى قوانين وقواعد تفسّر الظواهر الاجتماعية، سواء كانت هذه الظواهر في شكل جماعات بشرية، أو نظم ومؤسّسات اجتماعية أو إنسانية، وهو بالتالي العلم الذي يساعد في تكيّف الفرد والمجتمع للعيش معاً، ضمن أهداف معيّنة يسعون إلى تحقيقها، من أجل التقدّم والاستمرارية. [2]

فعلم الاجتماع إذن، يدرس العلاقات بين الأفراد وعمليات التفاعل فيما بينهم، وتصرّفاتهم كأعضاء مكوّنين لهذه الجماعة، فهو يركّز على سلوكيات الأفراد ضمن هذا المجتمع أو ذاك، ويدرس بالتالي تأثير البيئة الاجتماعية (الاقتصادية والثقافية) في تكوين

[1] الحصري، ساطع. أحاديث في التربية والاجتماع، بيروت: دار العلم للملايين، 1985، ص 8
[2] عيسى، محمد طلعت. مدخل إلى علم الاجتماع، بيروت: دار المعارف، 1986، ص 13.

الشخصيّة الإنسانية، وتحديد العلاقات بين الأفراد. [1]

إنّ مصـــطلح / علم الاجتماع / مشـــتقّ من كلمتين، الأولى هي (ســـوســـيو Sociu) اللاتينية، وتعني رفيق أو مجتمع. والثانية (لوغوس Logos) اليونانية، وتعني العلم أو البحث. وبما أنّ علم الاجتماع يتناول التفاعل الاجتماعي عندما يدرس الجماعة، فإنّ ثمّة تداخلاً كبيراً بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، فكلاهما يدرس البناء الاجتماعي والوظائف الاجتماعية .. وهذا ما دعا أحد العلماء إلى القول: إنّ علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، هو فرع من فروع علم الاجتماع المقارن.[2]

وهكذا نجد أنّ ثمّة صـــلة من نوع ما، بين علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، بالنظر إلى أنّ كلاً منهما يدرس الإنســان. ويتجاوز الترابط بينهما المعلومات التي يهدف كلّ منهما الحصول عليها، إلى منهجيّة البحث من حيث طريقته وأسلوبه، إلى حدّ تسمّى الأنثروبولوجيا عنده، بعلم الاجتماع المقارن، على الرغم أن أنّها تهتمّ بالجانب الحضاري عن الإنسان، بينما تقترب دراسة علم الاجتماع من الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

فعلم الاجتماع يركّز في دراســاته على المشــكلات الاجتماعية في المجتمع الواحد، كما يدرس الطبقات الاجتماعية في هذا المجتمع أو ذاك من المجتمعات الحديثة، ويندر

[1] الجيوشـي، فاطمة والشـمّاس عيسـى. التربية العامة، دمشـق: جامعة دمشـق – كليّة التربية، 2003، ص 59.
[2] لطفي، عبد الحميد. الأنثروبولوجيا الاجتماعية، القاهرة: دار المعارف، 1979، ص 44.

أن يدرس المجتمعات البدائية أو المنقرضة. بينما تركّز الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) في دراساتها، على المجتمعات البدائية / الأولية، وأيضاً المجتمعات المتحضّرة / المعاصرة.

ولكنّ دراسة الأنثروبولوجيا للمجتمعات الإنسانية، تتركّز في الغالب على: التقاليد والعادات والنظم، والعلاقات بين الناس، والأنماط السلوكية المختلفة، التي يمارسها شعب ما أو أمّة معيّنة. [1]أي أنّ علم الأنثربولوجيا الاجتماعية يدرس الحياة الاجتماعية (المجتمع ككلّ)، وينظر إليها نظرة شاملة، ويدرس البيئة العامة، والعائلة ونظم القرابة والدين، بينما تكون دراسة علم الاجتماع متخصّصة إلى حدّ بعيد. حيث يقتصر على دراسة ظواهر محدّدة أو مشكلات معيّنة، أو مشكلات قائمة بذاتها، كمشكلات: الأسرة والطلاق والجريمة، والبطالة والإدمان والانتحار ...[2]

وإذا كان ثمّة تباين أو اختلاف بين العلمين، فهو لا يتعدّى فهم الظواهر الاجتماعية وتفسيراتها، وفق أهداف كلّ منهما. فبينما نجد أنّ الباحث في علم الاجتماع، يعتمد على افتراضات نظرية لدراسة وضع المتغيرات الاجتماعية، ويحاول التحقّق منها من خلال المعلومات التي يجمعها بواسطة استبيان أو استمارة خاصة لذلك، نجد – في المقابل – أنّ الباحث الأنثروبولوجي، يعتمد تشخيص الظاهرة استناداً إلى فهم الواقع كما هو، ومن خلال الملاحظة المباشرة ومشاركة الأفراد في

[1] أبو هلال، أحمد. مقدّمة في الأنثروبولوجيا التربوية، عمان، الأردن: المطابع التعاونية، 1999، ص 10

[2] لطفي، عبد الحميد، مرجع سابق، ص 45.

حياتهم العادية.

ثالثاً-علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الفلسفة:

تعود كلمة (فلسفة) إلى الأصل اليوناني المكوّن من مقطعين : (فيلو PHILO + سوفيا SOPHY) أي فيلوسوفيا PHILOSOPHY، وتعني : (حبّ الحكمة) أو محبّة الحكمة .

ولكن على الرغم من أصلها الاشتقاقي، فقد اتّخذت عند أرسطو معنى أكثر دقّة وشمولاً، حيث عرّفها بأنّها: " علم المعنى الأكثر شمولاً لكلمة علم ". ويشرح ذلك بقوله: " الفلسفة هي علم المبادىء والأسباب الأولى، غايتها البحث عن الحقيقة برمّتها، وبأكثر أساليب الفكر نظاماً وتماسكاً ". أي أنّها: علم الوجود بما هو موجود، أو الفكر في جوهر وجوده. ولا يمكن بلوغ هذه الغاية إلاّ بإحكام دقيق للفكر، أي بمنهج يستند إلى مبادىء العقل.[1]

وبالنظر إلى هذا المعنى الواسع، اختلف الفلاسفة في إعطاء معنى دقيق للفلسفة. فقد عرّفها الطبيعيون بأنّها: البحث عن طبائع الأشياء وحقائق الموجودات. وعرّفها بعض الفلاسفة الآخرين بأنّها: مجموعة المعلومات في عصر من العصور. [2]

[1] الجيوشي، فاطمة. فلسفة التربية، دمشق: جامعة دمشق، كلية التربية، 1988، ص 30
[2] محمود، عبد الحليم. التفكير الفلسفي في الإسلام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1989، ص 225.

وإذا كانت الفلسفة (أم العلوم) كما كانت تسمّى، بالنظر لشمولية دراستها مجموعة من العلوم الرياضية والإنسانية والفيزيائية، فإنّ صلة الأنثروبولوجيا بها وثيقة جدّاً، ولا سيّما فيما يتعلّق بنظرة الإنسان إلى الكون والحياة، في زمان ما أو مكان محدّد. وذلك لأنّ الزمان والمكان مرتبطان بعلاقة جدلية، لا يمكن إدراك مكوّناتها إلاّ من خلال دراسة الفعل الإنساني، الذي يسعى إلى البقاء والاستمرار.

فدراسة أصل الإنسان ونشأته وحياته وسعيه إلى البقاء والخلود، وما ينجم عن ذلك من تطوّر وتغيّر مستمرّين، كلّها تقع في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية، ولا سيّما تلك العلاقة الأزلية بين طبيعة الإنسان، وواقعه وما يطمح إليه من آمال وأهداف، تؤمّن سيرورة حياته.

رابعاً– علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس

يعرّف علم النفس بأنّه: العلم الذي يهتمّ بدراسة العقل البشري، والطبيعة البشرية، والسلوك الناتج عنهما. أي أنّه: مجموعة الحقائق التي يتمّ الحصول عليها من وجهة النظر النفسيّة. وهذا يعني: أنّه العلم الذي يدرس سلوك الإنسان بهدف فهمه وتفسيره. [1]

ومن هذا المنطلق، يمكن القول: إنّ علم النفس، هو العلم الذي يدرس الإنسان من جوانب شخصيّته المختلفة، بغية الوصول إلى حقائق حولها، قد تكون ذات صفة

[1] أبو هلال، أحمد، مرجع سابق، ص 26.

عامة ومطلقة، يمكن تعميمها.

ولذلك، تهتمّ الدراسات النفسيّة بالخصائص الجسميّة الموروثة، وتحديد علاقاتها بالعوامل السلوكية لدى الفرد، ولا سيّما تلك العلاقة بين الصفات الجسميّة العامة، وسمات الشخصيّة. مع الأخذ في الحسبان العوامل البيئيّة المحيطة بهذه الشخصيّة.

ويميل النفسيون إلى الاعتقاد بأهميّة هذه العوامل البيئيّة في هذه العلاقة، فالشخص القوي البنية، والذي يميل إلى السيطرة وتولّي المراكز القياديّة، لا بدّ وأنّه تعرّض إلى خبرات اجتماعية / نفسيّة، في أثناء طفولته ونموّه، أسهمت في إكسابه هذه السلوكيات.[1]

وإذا كانت الأنثروبولوجيا، توصف بأنّها العلم الذي يدرس الإنسان، من حيث تطوّره وسلوكياته وأنماط حياته، فإنّ علم النفس يشارك الأنثروبولوجيا في دراسة سلوك الإنسان. ولكنّ الخلاف بينهما، هو أنّ علم النفس يركّز على سلوك الإنسان / الفرد، أمّا الأنثروبولوجيا فتركّز على السلوك الإنساني بشكل عام. كما تدرس السلوك الجماعي النابع من تراث الجماعة. [2]

وعلى الرغم من أنّ علم النفس يقصر دراسته على الفرد، بينما تركّز الأنثروبولوجيا

[1] الجسماني، عبد العال. علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية، بيروت: الدار العربية للعلوم، 1992، ص 271.

[2] ناصر، ابراهيم. الأنثروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، عمّان: دار الفكر العربي، 1985، ص 21.

اهتمامها على المجموعة من جهة، وعلى كلّ فرد بصفته عضواً في هذه المجموعة من جهة أخرى، فثمّة صلة وثيقة بين العلمين. حيث اكتشف علماء النفس أنّ الإنسان لا يعيش إلاّ في بيئة اجتماعية يؤثّر فيها ويتأثّر بها ..

وتنصبّ الدراسة في علم النفس الاجتماعي على المحاكاة والتقليد والميول الاجتماعية، كالمشاركة الوجدانية والتعاون والغيرية وغريزة التجمّع، إضافة إلى دراسة الاتّجاهات. فقد صدرت دراسات خاصة بالأنثروبولوجيا السيكولوجية، التي تعنى بالظواهر السيكولوجية لبني البشر حين يعيشون في طبقة أو جماعة، حيث أنّ الطبيعة الإنسانية من صميم علم النفس العام، كما أنّها عامل حتمي في تكوين النظم الاجتماعية / الإنسانية. [1]

ولذلك نرى أنّ المهمّة التي تواجه الباحث الأنثروبولوجي، لا تختلف عن تلك المهمةّ التي تواجه عالم النفس. فكلاهما عليه أن يستخلص صفات الشيء الذي هو موضوع دراسته، من التعبير الخارجي في السلوك .. وإن كان عالم الأنثروبولوجيا يعوّقه اضطراره إلى إدخال خطوة إضافية في مستهلّ عمله، فبينما يستطيع عالم النفس أن يلاحظ سلوك موضوع بحثه بصورة مباشرة، ينبغي على عالم الأنثروبولوجيا أن يبني استنتاجاته على الأنماط المثالية للثقافة التي يتناولها بالبحث.

ولكنّ مهمّة عالم الأنثروبولوجيا في محاولاته لكشف خفايا الأمور، تشبه مهمّة

[1] رشوان، حسين عبد الحميد أحمد. الأنثروبولوجيا في المجال النظري، ط1، الاسكندرية: دار الشروق، 1988، ص 868.

عالم النفس في الجهود التي يبذلها في سبر غور العقل الباطن. وفي كلا الحالين، تتألّف النتائج التي يتوصّل إليها الباحثون من سلسلة تأويلات، أمّا الحقائق التي تستند إليها هذه التأويلات، فكثيراً ما تكون قابلة لأكثر من تفسير.[1]

لذلك، تعدّ دراسة الأنثروبولوجيا دراسة للأنماط السلوكية الإنسانية، بينما تعدّ الدراسة النفسيّة دراسة للسلوك الخاص بالشخصيّة الفردية، وأن كانت تتأثّر بالعلوم الاجتماعية.

خامساً– علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجيولوجيا والجغرافيا

تساعد الدراسات الجيولوجية التاريخية في تحديد الفترات الزمنية التي عاش فيها كلّ نموذج من أنواع الجنس البشري، نظراً لوجود البقايا العظمية للأسلاف، على شكل بقايا مستحاثة حفرية بين ثنايا القشرة الأرضية الرسوبية والمنضدّة بعضها فوق بعض، وفق خاصية النشوء والتقادم لكلّ منها، بحيث يكون أسفلها أقدمها وأعلاها أحدثها.

وهذا يمكّننا من معرفة الفترة الزمنية التي عاش فيها ذلك الإنسان الحفري، إلى جانب معرفة العالم الحيواني الآخر الذي كان يحيط به، من خلال التعرّف إلى البقايا العظمية المستحاثية للأنواع الحيوانية التي كانت تعاصره في بيئة جغرافية واحدة. كما أنّنا نستطيع التعرّف إلى الظروف المناخية التي كانت سائدة عندما كان يعيش هذا

[1] الجسماني، عبد العال، ص 88.

الإنسان أو ذاك، في تلك الأزمنة السحيقة من تاريخنا البشري.[1]

وكما تستفيد الأنثروبولوجيا من الدراسات الجيولوجية، تستفيد أيضاً من المعطيات العلمية / الجغرافية، وفي مقدّمتها النواحي الطبيعية، من تضاريس ومياه، إلى جانب الظروف المناخية التي تتفاوت من منطقة إلى أخرى، وذلك بحسب قربها – أو بعدها- من خط الاستواء، أو من شواطئ البحار والمحيطات، أو ارتفاعها وانخفاضها عن سطح البحر.

فهذه العوامل كلّها تؤثّر في حياة الإنسان بجوانبها المختلفة، العضوية والاجتماعية والثقافية. ولذلك، فإنّ الأحوال المعيشية والبنى الاجتماعية عند المجتمعات البشرية، ليست متشابهة بسبب تباين الظروف الجغرافية التي توجد فيها تلك المجتمعات. فسكان المناطق الجبلية المرتفعة يكونون في مأمن من الأخطار الخارجية، بينما يتعرّض سكان السهول دوماً إلى غزوات واجتياحات من الشعوب أو القوى الخارجية. وفي المقابل، يكون سكان المناطق الساحلية أكثر انفتاحاً في علاقاتهم مع العالم الخارجي، قياساً بأهل المناطق الداخلية حيث تكون العلاقات الأسرية شبه منغلقة على ذاتها، إلى جانب الالتزام بالعصبية القبلية. وهذا ينعكس في سلوكية السكان في هذه المنطقة أو تلك.

ولذلك، يميل علماء الأنثروبولوجيا إلى إهمال ما يسمّى بالقدرات الفطرية

[1] الجباوي، على. الأنثروبولوجيا – علم الإناسة، دمشق: جامعة دمشق، 1997، ص 12

للشـــعوب الإنســـانية، ويؤثرون كتابة تاريخ الحضـــارة في ضـــوء عوامل البيئة والحظ وتسلسل الأحداث المترابطة. فهناك من يجد أنّ للمناخ أثراً في ناتج الطاقة الإنسانية، وهناك من يعتقد بوجود علاقة بين الطقس والخمول الذي يتميّز به ســـكان المناطق الحارة، أو النشاط الاندفاعي الذي يميّز سكان المناطق الباردة والعاصفة.

وضمن هذه الرؤية، قام الدكتور (وليم بيترسن) W. Petersen في أواسط الســـتينات من القرن العشـــرين، بإجراء تحليل دقيق للارتباط الوثيق بين الطقس والوظائف الفيســـيولوجية، وبنى دراســـته على التقدّم الذي أحرزه المرضـــى الذين كان يشـــرف على علاجهم. وتبيّن من نتائج أبحاثه، أنّ تقلّبات حالة المرضـــى تتبع نمطاً مشابهاً لتراوحات الضغط البارومتري، وبدا وكأنّ الظاهرة الأولى تتأثّر بالثانية.[1]

وإذا كان من الصحيح أنّ وظائف الإنسان الفسيولوجية قابلة للتكيّف مع أنواع البيئات المختلفة، فإنّه من السهل – في المقابل – أن نتصوّر أن بعض جوانب البيئة، تكون أكثر أهميّة وتأثيراً من بعضـــها الآخر، في مراحل معيّنة من تاريخ التطوّر الإنساني، الحضاري والاجتماعي والثقافي ... وهذا كلّه يدخل في جوهر الدراسات الأنثروبولوجية وأهدافها.

وهكذا، تُشكّل الأنثروبولوجيا مع العلوم الأخرى، ولا سيّما العلوم الإنسانية، منظومة من المعارف والموضـــوعات التي تدور حول كائن موضـــوع الدراســـة، وهو

[1] نفس المرجع السابق، ص 14.

الإنسان. ويأتي هذا التشابك (التكامل) بين هذه العلوم بالنظر إلى تلك الأطر المعرفية والمناهج التحليلية، التي تنظّم العلاقة المتبادلة والمتكاملة بين المجالات المعرفية المختلفة التي تسعى إليها هذه العلوم.

الفصل الرابع: دراسة الأنثروبولوجيا واتجاهاتها المعاصرة

أولاً- بداية دراسة الأنثروبولوجيا

ثانياً- الاتجاهات المعاصرة لدراسة الأنثروبولوجيا

1-الاتجاه التاريخي

2-الاتجاه البنائي/ الوظيفي

ثالثاً-الأنثروبولوجيا والحداثة

رابعاً- الأنثروبولوجيا والمعرفة

الفصل الرابع: دراسة الأنثروبولوجيا واتجاهاتها:

لم تعرف الأنثروبولوجيا قبل النصف الثاني من القرن العشرين، تقسيمات وفروعاً، إذ كانت تتمّ لأغراض خاصة بالباحث أو من يكلّفه، كدراسة حياة بعض المجتمعات أو مكوناتها الثقافية.

ومع انطلاقتها في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، حيث أخذت تتبلور مبادئها وأهدافها، كانت ثمّة محاولات جادّة لتوصيفها كعلم خاص، وبالتالي وضع تقسيمات لها وفروع من أجل تحقيق المنهجية التطبيقية من جهة، والشمولية البحثية التكاملية من جهة أخرى. فظهرت نتيجة ذلك تصنيفات متعدّدة، استند بعضها إلى طبيعة الدراسة ومنطلقاتها، بينما استند بعضها الآخر إلى أهدافها.

فقد قسّمها "رالف بدنجتون" في كتابه " مقدّمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية "الصادر عام 1960، إلى قسمين أساسيين: (الأنثروبولوجيا العضوية أو الطبيعية، والأنثروبولوجيا الثقافية). [1]

أمّا " بارنو" فقد قسّمها في كتابه " الأنثروبولوجيا الثقافية " الصادر عام 1972، إلى ثلاثة أقسام، هي: (الأنثروبولوجيا التطبيقية، الأنثربولوجيا النفسية أو الثقافة والشخصية، الأنثروبولوجيا الاجتماعية). [2]

[1] الجباوي، على. مرجع سابق، ص 58.
[2]

وإذا اعتبرنا أنّ الانثروبولوجيا التطبيقية، هي أقرب إلى المنهج البحثي وليست فرعاً من علم الأنثروبولوجيا، ومن ثمّ قمنا بعملية توليف بين الأقسام الأخرى في التصنيفين السابقين، أمكننا الوصول إلى التصنيف التالي الذي يضمّ أربعة فروع (أقسام) رئيسة تشمل الجوانب المتعلّقة بالإنسان / الفرد والمجتمع/، وهي: (الأنثروبولوجيا العضوية / الطبيعية، الأنثروبولوجيا النفسيّة، الأنثروبولوجيا الثقافية، الأنثروبولوجيا الاجتماعية). وسنتعرّف فيما يلي كلّ فرع من هذه الفروع.

أولاً–البدايات الأولى لدراسة الأنثروبولوجيا:

شهد القرن العشرين مراحل تكوين الأنثروبولوجيا وتطويرها، لتصبح كياناً أكاديمياً ومهنة متخصّصة عند كثير من العلماء والفلاسفة والباحثين. فعلى الرغم من أنّ الفكر الأنثروبولوجي قد ظلّ خلال العقدين الأوليين من القرن العشرين، متأثّراً إلى حدّ بعيد، بالنظريات التي سادت وتبلورت في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، فإنّه سرعان ما تغيّر وتحوّل إلى منطلقات جديدة، نتج عنها اتّجاهات متعدّدة إزاء دراسة الإنسان وحضارته، سواء ما كان منها نظرياً أو منهجيّاً[1].

إنّ الاتجاه العلمي الذي نشط في القرن التاسع عشر، وتبلور في مجالات متعدّدة، دفع العقل الإنساني إلى نبذ الفكر الفلسفي الذي كان يتحفّظ على قدرة العقل الإنساني في التوصّل إلى الحقيقة المطلقة. وهذا ما نتج عنه قيم فكرية جديدة تدعو إلى

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 62.

النظر إلى العقل والمنطق المحســـوس، والواقع الملموس كأدوات للمعرفة، كما تدعو إلى التفاؤل بمستقبل الإنسانية.

إلاّ أن أحداث الحرب العالمية الأولى ونتائجها الســـلبية على المجتمع الإنســـاني، بدّدت هذا التفاؤل، وأحلّت محلّه النظرة التشاؤمية. وهذا ما بدا في نظرة الفلاسفة إلى مشـــكلات الإنســـان في هذا القرن (القرن العشـــرين)، إلى حدّ اعتقاد بعضـــهم أنّ المســـتقبل صـــعب ومظلم مع ظهور النازية في ألمانيا، والفاشـــية في إيطاليا. وبلغ هذا الاتّجاه ذروته فيما عرف بالحركة (الوجودية) التي شاعت في فرنسا، وعلى رأسها" جان بول سارتر" الذي عاش ما بين (1905- 1980)

وبرز مقابل هذا الاتجاه التشـــاؤمي، اتجاه آخر اتّصـــف بالتفاؤل، كان من أبرز روادّه في أمريكـــا الفيلســـــوف التربوي "جون ديوي" الـــذي عـــاش مـــا بين (1859-1952). فقد أصـدر كتابه الشـهير " إعادة البناء في الفلسـفة " وتبنّى فيه موقفاً صريحاً مناهضاً للفلسفة الميتافيزيقية.

ودعا فيه إلى ضـــرورة الاهتمام بالبحث عن القوى المعنوية التي تحرّك مناشـــط الإنسان، لاعتقاد" ديوي" أنّ لدى هذا الإنسان الكثير من الإمكانات والقدرات التي يمكنه بواسطتها الخروج من أزمته الراهنة .. كما تساعده في مشكلاته الحياتية المتزايدة، دون اللجوء إلى قوى خارجة عن نطاق الطبيعة.

وكان للدين أيضـــاً تأثيراته في تشـــكيل الفكر الأنثروبولوجي في العقود الأولى من

القرن العشـرين، ولا سـيّما على النظم الاجتماعية، إلاّ أنّ ذلك التأثير تضـاءل أمام تعاظم التيارات التحرّرية وما رافقها من إنجازات علمية هائلة، الأمر الذي حدا بالكنيسـة في بداية النصـف الثاني من القرن العشـرين، إلى تقبّل فكرة الحوار وحرية المناقشة في الأمور الدينية والدنيوية .. بعيداً عن الأساليب القمعية التقليدية [1]

وهكذا، شـكّل هذا العلم دعامة أسـاسـيّة في ثقافة القرن العشـرين عامة، وفي الفكر الأنثروبولوجي خاصـة، حيث كان وثيق الصـلة بالفكر الاجتماعي والقضـايا الإنسـانية التي أسـهمت في تحديد موضـوعات الدراسـات الأنثروبولوجية، ومناهجها وأهدافها.

ثانياً–الاتّجاهات المعاصرة في دراسة الأنثروبولوجيا:

لاقت النظرية التطوّرية التي ظهرت في القرن التاسـع عشـر، انتقادات واسـعة باعتبارها اسـتندت إلى الحدس والتخمين، وتعميم الأحكام المطلقة على الثقافات الإنسانية، من دون أن تثبت صحّة ذلك بالبراهين أو القرائن العملية أو الواقعية.

ولذلك، بدأت تضـمحلّ تدريجياً مع بداية القرن العشـرين، لتحلّ محلّها أفكار نظرية جديدة لدراسـة الثقافات الإنسـانية، من حيث نشـوؤها ومكوّناتها وتطوّرها. فكان أن ظهرت خلال الربع الثاني من القرن العشرين ثلاث اتجاهات رئيسيّة متفاعلة فيما بينها، ركّزت في دراسـاتها على تناول العلوم الاجتماعية، بأسـسـها ومنطلقاتها

[1] عيسى، محمد طلعت، ص 55.

وأهدافها. وهذا ما أسهم بفاعلية في إرساء دعائم علم الأنثروبولوجيا المعاصر.

1-الاتّجاه التاريخي:

ويقسم إلى قسمين: الاتجاه التاريخي / التجزيئي، والاتّجاه التاريخي النفسي. وسنقدّم فيما يلي عرضاً موجزاً لكلّ منهما.

1-1- الاتّجاه التاريخي / التجزيئي: ذكرنا أنّ الفكر التطوّري للحضارات الإنسانية، أصبح سائداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث بدأت تتبلور الدراسات الأنثروبولوجية. وظهر إلى جانبه أيضاً الاتّجاه الانتشاري الذي يعتمد على أنّ نشأة الحضارة الإنسانية كلّها ترجع إلى مصدر (مجتمع) واحد، ومنه انتشرت إلى أماكن أخرى في العالم.

ويوجد الاتّجاه الانتشاري في كلّ من الأنثروبولوجيا الثقافية والأنثروبولوجيا الاجتماعية، وإن أخذ طابعاً خاصّاً في كلّ منهما. فتطبيق الاتجاه الانتشاري في مجال الأنثروبولوجيا الثقافية، يتعلّق بجمع العناصر الثقافية، بما في ذلك من العناصر التكنولوجية والفكرية، بينما يقتصر في مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية، على العلاقات والنظم الاجتماعية السائدة في المجتمع، والتي تشمل بعض العناصر الثقافية، ولا تشملها كلّها[1].

[1] الجباوي، على، مرجع سابق، ص 59.

ويقوم الاتجاه هنا على مبدأ هام، وهو أنّ النظم الاجتماعية كثيراً ما تستعار أو تنقل من مكان إلى مكان آخر، وبناء على ذلك فإنّ تشابه النظم الاجتماعية والعادات، في المجتمع الواحد أو في المجتمعات المختلفة، لا ينشأ على نحو تلقائي، وإنّما ناتج عن التشابه في الإمكانات الاجتماعية والطبيعيّة والإنسانية.[1]

وعلى الرغم من ذلك استمرّ اهتمام الباحثين باستخدام المنهج التاريخي في تفسير ظاهرة التباين بين الحضارات في المجتمعات الإنسانية، واعتمد هذا الاتّجاه على مبدأين اثنين.

أولهما: أنّ الاتّصال بين الشعوب المختلفة، كان بفعل الاحتكاك الثقافي / الحضاري، المباشر وغير المباشر.

وثانيهما: عملية انتشار بعض المكوّنات (الخصائص) الحضارية أو كلّها، من مصادرها الأصلية إلى المجتمعات الأخرى، سواء بالرحلات التجارية أو بالكشوف أو بالحروب والاستعمار، وهذان المبدآن متكاملان في دراسة الظواهر الثقافية، ويمكن من خلالهما تفسير التباين الحضاري بين الشعوب.

وقد اعتمد هذا الاتّجاه منهجاً تاريخياً –جغرافياً، قاده الألماني "فريدريك راتزال"

[1] جابر، سامية. علم الإنسان – مدخل إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، بيروت: دار العلوم العربية، 1991، ص .85

الذي ركّز على أهميّة الاتّصالات والعلاقات الثقافية بين الشعوب المختلفة، ودورها في نمو الحضارة الخاصة والعامة. وتبعه في ذلك تلامذته، ولا سيّما "هوينريخ شورتز" الذي أبرز فكرة وجود علاقات حضارية بين العالم القديم (إندونيسيا وماليزيا) والعالم الجديد (أمريكا) .وكذلك "ليوفرو بينيوس" صاحب نظرية (الانتشار الحضاري) بين إندونيسيا وأفريقيا.

وانطلاقاً من هذا الاتّجاه، ظهرت في أوروبا نظريتان مختلفتان حول التفسير الانتشاري لعناصر الثقافة. [1]

النظرية الأولى: هي النظرية الانتشارية التي تعتمد الأصل المركزي الواحد للثقافة / الحضارة. سادت هذه النظرية في إنكلترا، وأرجعت نشأة الحضارة الإنسانية كلّها إلى مصدر واحد، ومنه انتشرت إلى المجتمعات الإنسانية الأخرى.

وكان من روّاد هذه النظرية، عالم التشريح / إليوت سميث / وتلميذه / وليم بيري / اللذان رأيا أنّ الحضارة الإنسانية، نشأت وازدهرت على ضفاف النيل في مصر القديمة، منذ حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد.

وعندما توافرت الظروف المناسبة للتواصل بين الجماعات البشرية، بدأت بعض مظاهر تلك الحضارة المصرية القديمة تنتقل إلى أرجاء متعدّدة من العالم، حيث عجزت شعوبها عن التقدّم الثقافي والابتكار الحضاري، فراحت تعوّض عن ذلك العجز

[1] نفس المرجع السابق، ص 88.

بالاستيراد والتقليد. [1]

لقد نال / إليوت سميث / شهرة كبيرة عن جدارة، نتيجة أبحاثه عن المخ ودراساته في الأنثروبولوجية القديمة (Paleo-anthropology)، حيث انكبّ في إحدى فترات حياته على دراسة المخ في المومياء المصرية. وقادته أبحاثه هذه إلى الإقامة في مصر، حيث أدهشته الحضارة المصرية القديمة. وأخذ، كما فعل العديدون، يلاحظ أنّ الثقافة المصرية القديمة، تضمّ عناصر كثيرة يبدو أنّ لها ما يوازيها في ثقافات بقاع أخرى من العالم، وقلبت نظرياته الجريئة، الاعتبارات التقليدية عن الزمان والمكان. فلم يقتصر على القول بأنّ العناصر المتشابهة في حوض البحر الأبيض المتوسط وأفريقيا والشرق الأدنى والهند، من أصل مصري، بل ذهب إلى أنّ العناصر المماثلة في ثقافات أندونيسيا والأمريكتين، تنبع من المصدر المصري ذاته.[2]

أمّا "وليم بيري" فقد أعطى في كتابه (أبناء الشمس) شرحا كاملاً للنظرية " الهيليوليتية Heliolithic " وهو الاسم الذي أطلق على المدرسة الانتشارية عن تاريخ الثقافة. فعنوان الكتاب، يشير إلى أحد عناصر المجمّع الثقافي الذي تزعم هذه المدرسة أنّ أصله في مصر، ومنها انتشر.. وهو الاعتقاد بأنّ الملك ابن الشمس، والعناصر الأخرى في هذا المجمّع هي: التحنيط، بناء الأهرامات، والقيمة الكبرى

[1] محمد، رياض. الإنسان – دراسة في النوع والحضارة، القاهرة: دار النهضة العربية، 1974، ص 127.
[2] جابر، سامية، مرجع سابق، ص 90.

للذهب واللآلىء[1]

وتنطلق براهين "سميث وبيري" من أنّ بناء الأهرامات أيضاً من منشأ مصري، كما هي الحال في أهرامات المكسيك. وكذلك الأمر في احتفاظ الأفريقيين بعظم ساق الملك المتوفّى، لاستعماله في الطقوس الدينية نتيجة لانتشار عادة التحنيط عند المصريين.

النظرية الثانية: هي النظرية الانتشارية التي تعتمد الأصل الثقافي والحضاري، المتعدّد المراكز. وكان من دعاة هذه النظرية، فريق من العلماء الألمان والنمساويين، وفي طليعتهم "فريتز جراينور" الذي عاش في الفترة ما بين 1875-1934) و"وليم شميدت" الذي عاش في الفترة ما بين (1868-1959) .

لقد رفض هذا الفريق فكرة المنشأ(المركز) الواحد للحضارة الإنسانية، لأنّ هذه الفكرة ضرب من الخيال أكثر من قربها إلى الأساس العلمي. وافترضوا وجود مراكز حضارية أساسية وعديدة، في أماكن متفرقة في العالم. ونشأ من التقاء هذه الحضارات، بعضها مع بعض، دوائر ثقافية تفاعلت ببعض عمليات الانصهار والتشكيلات المختلفة.[2]

وكان "ويسلر" أوّل من استعمل (الدائرة الثقافية) بهذا المعنى، في بحثه عن ثقافات

[1] ناصر، ابراهيم. مرجع سابق، ص 150.
[2] جابر، سامية. مرجع سابق، ص 100.

الهنود الأمريكيين. ولا يزال تعريفه لهذا المفهوم على الرغم من تعديله، منذ ذلك الوقت مفيدا في هذا المجال. يقول "ويسلر": " إذا أمكننا تجميع سكان العالم الجديد الأصليين، أي الهنود الأمريكيين، فسنحصل على دوائر متعدّدة : دوائر طعام، دوائر منسوجات، ودوائر خزف ... وغيرها. وإذا أخذنا في الحسبان العناصر جميعها في وقت واحد، وحوّلنا الوحدات الاجتماعية أو القبلية، يمكننا أن نجد جماعات محدّدة المعالم، وهذا ما يعطينا الدوائر الثقافية، أو تصنيفاً للجماعات وفق عناصر ثقافتهم ".[1]

وهذا ما يفسّر أوجه الاختلاف عن تلك الثقافات المركزية الأساسية. إلاّ أنّ أصحاب هذا الرأي لم يقدّموا الدلائل على أماكن وجود تلك المراكز، أو عمليات تتبع حركات الاتّصال فيما بينها، ودراسة النتائج المترتّبة على ذلك، بطريقة منهجيّة سليمة. [2]

لقد كانت وجهة نظر المدرسة (الثقافية التاريخية) الألمانية – النمساوية، أكثر عمقاً وتنميقاً .. وكانت عنايتها باختيار معايير الحكم على قيمة وقائع الاقتباس المفترضة، وإصراراها على الحيطة في استخدام مصادر المعلومات، ودقّتها في تحديد تعريفاتها، وغنى وثائقها، تتجاوب كلّها تماماً مع متطلّبات البحث العلمي الدقيق، ولهذا لاقت قبولاً واسعاً.

تقوم نظرية المدرسة (الثقافية – التاريخية) في جوهرها، وكما شرحها زعيمها "وليم

[1] نفس المرجع السابق، ص 101.
[2] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 160.

شميدت"، على نظرة صوفية إلى طبيعة الحياة وإلى التجربة الإنسانية، فقد نشأت هذه المدرسة ضمن إطار فكري، واستخدمت تعبيرات ومصطلحات تختلف اختلافاً جوهرياً عن النظرة العقلانية، وعن مفردات أغلب المفكّرين الأنثروبولوجيين .. ويظهر ذلك في مناقشة "شميدت" طرائق البحث في دراسة الدوائر الثقافية المختلفة، والتي تقسم إليها هذه المدرسة، أي الثقافات جميعها، وترى أنّها انتخبت الثقافات الموجودة – اليوم – في العالم، بواسطة انتشار عناصرها.

ويعترف "شميدت" كما يعترف الأنثروبولوجيين جميعهم، بالحاجة إلى فهم (معنى الحياة البدائية) بالنسبة لمن يعيشونها، والأهمّ من ذلك فهم معناها بالنسبة لأولئك الذين عاشوها في العصور الغابرة ... ويقول "شميدت" إنّنا نعرف ذلك باللجوء إلى المبدأ السيكولوجي التعاطفي، الذي يستطيع الإنسان بواسطته أن يضع نفسه في الحالة النفسيّة للشخص الذي يرتبط معه بعلاقة ما[1]

أمّا إسهام "فريتز جرابنور" في منهج المدرسة التاريخية – الثقافية بوجه خاص، وفي علم الأنثروبولوجيا، بوجه عام، فتمثّل في التحديد الدقيق الموضوعي لمعايير تقييم انتشار بعض العناصر الثقافية، من شعب إلى شعب آخر.

فالنظام الاجتماعي والثقافة السائدان عند جماعة (مجتمع ما) لهما تأثير انتقائي، إذ يحولان دون قبول نماذج لا تنسجم البتّة مع النسق القائم. وفي الوقت نفسه، لا

[1] نفس المرجع السابق، ص 120.

يمكن تجاهل أثر الاقتباس على الأنظمة الاجتماعية، حيث تتوقّف فرص الاقتباس على الاحتكاكات التي تكون وليدة المصادفات. ومثال ذلك: أن تكون الثقافة التي احتكّ بها الهنود المكسيكيون هي الثقافة الإسبانية، أمر يمكن اعتباره حدث اتفاقاً وعَرَضاً. وكذلك الحال بالنسبة لهنود الولايات المتّحدة الأمريكية، الذين كان معظم احتكاكهم بالثقافتين الإنجليزية والفرنسيّة.[1]

إنّ هذه المعايير التي يدعونها معايير الكيف والكم، هي أساسية في الدراسات التي تتناول النقل الثقافي جميعها، ومعناها بسيط جدّا؛ فعندما يبدو للعيان تماثل بين ثقافتي جماعتين مختلفتين، فإنّ حكمنا حول احتمال اشتقاقهما من مصدر واحد، يتوقّف على عدد العناصر المتماثلة ومدى تشابكها. فكلّما ازداد عدد العناصر المتماثلة، ازداد احتمال وقوع الاقتباس .. وينطبق الأمر ذاته على مدى تداخل (تعقيد) عنصر من العناصر. ولذا يمكن استخدام القصص الشعبية، مثلاً، استخداماً مفيداً في دراسة الاحتكاك التاريخي بين الشعوب البدائية. [2]

ولم يقتصر التفسير الانتشاري على أوروبا فحسب، وإنّما امتدّ أيضاً إلى أمريكا حيث ظهرت حركة مماثلة لآراء "سميث وشميدت" من حيث نقد التفسير التطوّري للثقافة، والاتفاق على فكرة انتشار العناصر الثقافية بطريق الاستعارة والتقليد، كأساس لتفسير التباين الثقافي والحضاري بين الشعوب.

[1] لينتون، رالف. دراسة الإنسان، مرجع سابق، ص 354.
[2] نفس المرجع السابق، ص 231.

أمّا بخصوص فكرة المراكز الحضارية (الدوائر الثقافية) فيرى أصحاب المدرسة الأمريكية، أنّ الملامح المميزّة لثقافة ما، وجدت أولاً في مركز ثقافي – جغرافي محدّد ثمّ انتقلت إلى أماكن أخرى من العالم، وهذا يعني أنّ أصحاب الاتّجاه الانتشاري في أمريكا، رفضوا آراء الأوربيين بعدم إمكانية التطوّر الحضاري المستقلّ، وأن بعض الناس بطبيعتهم غير مبتكرين أو قادرين على القيام بعملية الابتكار والتطوّر.

وكان الأمريكي "فرانز بواز" الرائد الأوّل لهذا الاتّجاه التاريخي / التجزيئي، قد عارض الفكرة القائلة بوجود طبيعة واحدة وثابتة للتطوّر الثقافي. ورأى أنّ أية ثقافة من الثقافات، ليست إلاّ حصيلة نمو تاريخي معيّن. ولذلك يتوجب على الباحث الأنثروبولوجي أن يوجّه اهتمامه نحو دراسة تاريخ العناصر المكوّنة لكلّ ثقافة على حدة، قبل الوصول إلى تعميمات بشأن الثقافة الإنسانية بكاملها. وقد أصرّ "بواز" على أنّه لكي تصبح الأنثروبولوجيا علماً، فلا بدّ أن تعتمد في تكوين نظرياتها على المشاهدات والحقائق الملموسة، وليس على التخمينات أو الفرضيات الحدسيّة.

ومن هذا المنطلق استخدم "بواز" مصطلح (المناطق الثقافية) للإشارة إلى مجموعة من المناطق الجغرافية ذات النمط الثقافي الواحد، بصرف النظر عمّا تحتويه هذه المناطق من جماعات أو شعوب. وقد طبّق "بواز" هذا المفهوم على ثقافات قبائل الهنود الحمر في أمريكا، واستطاع تحديد – تمييز- سبع مناطق ثقافية رئيسة، يندرج تحتها هذا العدد الهائل من قبائل الهنود الحمر، والذي كان يزيد عن (50) قبيلة، في الوقت الذي

نزح الأوروبيون لاستعمار القارة الأمريكية.

وبهذا يشير مفهوم (المنطقة الثقافية) إلى طرائق السلوك الشائعة بين عدد من المجتمعات التي تتميّز باشتراكها في عدد من مظاهر الثقافة، نتيجة لدرجة معيّنة من الاتّصال والتفاعل[1].

وإذا ما تصفّحنا كتابات "بواز" وجدنا أنّ أفكاره تتميّز عن أفكار ‘‘سميث وبيري وشميدت " وغيرهم من الانتشاريين المتطرّفين، وذلك بتشديده على النقاط التالية:

1-إنّ الدراسة الوصفية للانتشار، مقدّمة لدراسة عملية الانتشار دراسة تحليلية

2-يجب أن تكون دراسة الانتشار دراسة استقرائية، أي أنّه يجب دراسة العناصر الثقافية المترابطة (المجمّعات الثقافية) التي يزعم أنّها ناشئة عن الانتشار تبعاً لعلاقتها الداخلية، أكثر من كونها مجموعة من العناصر شكّلها الباحث اعتباطياً.

3- يجب أن تتّجه دراسة الانتشار من الخاص إلى العام، ورسم توزيع للعناصر في مناطق محدودة، قبل رسم خارطة توزّعها في القارة، وترك الكلام عن توزّعها في العالم كلّه.

4-إنّ منهج دراسة العملية الديناميكية، والانتشار ليس سوى وجه من وجوهها، يجب أن يكون منهجاً سيكولوجياً، وأن يعود إلى الفرد بغية فهم حقائق التغيّر

[1] خفاجة، محمد صقر. مرجع سابق، ص 120.

الثقافي.[1]

واستناداً إلى هذه المنطلقات، يرى "بواز" أنّ مراعاة العوامل السيكولوجية الكامنة في عملية الاقتباس، تكتسب أهميّة كبيرة في هذه الدراسات الثقافية. كما يجب تحليل هذه الثقافات بصورة إفرادية أولاً، ومن ثمّ إجراء مقارنة تفصيلية فيما بينها، سواء من حيث نظامها البنائي أو من حيث عناصرها، ولا تكون النتائج مقبولة إلاّ بتحرّيات في مناطق عديدة تسمح بتعميم هذه النتائج.

فقد اكتشف "بواز" أنّ ثمّة عدداً من السمات الثقافية المشتركة بين جماعات الهنود الحمر، التي تعيش في السهول الساحلية لأمريكا الشمالية، فعلى الرغم من أنّ لكلّ منها استقلاليتها الخاصة واسمها ولغتها وثقافتها، إلاّ أنّ سكانها جميعهم يصطادون الجاموس للغذاء، ويبنون المساكن على أعمدة يغطونها بالجلود التي يستخدمونها أيضاً في صنع الملابس. ..

وهكذا جاء مفهوم (مصطلح) المنطقة الثقافية، كتصنيف وصفي وتحليلي للثقافات، الأمر الذي يسهل المقارنة بين الثقافات، ومن ثمّ الوصول إلى تعميمات بشأن الثقافة الإنسانية كلّها. [2]

ونتج عن هذا الاتّجاه الانتشاري بوجه عام، أن بدأ الأنثروبولوجيين ينظرون إلى

[1] أبو زيد، العيسي. مرجع سابق، ص 202.
[2] نفس المرجع، ص 203.

أنّ للثقافات الإنسانية كيانات مستقلّة من حيث المنشأ والتطوّر والملامح الرئيسة التي تميّز بعضها من بعض، وهذا ما عزّز فكرة تعدّد الثقافات وتنوّعها، وطرح مفهوم النسبية الثقافية التي أصبحت من أهمّ المفهومات الأساسيّة في الفكر الأنثروبولوجي وتطوّره، كعلم خاص من العلوم الإنسانية له منطلقاته وأهدافه، توجب دراسته من خلالها.

ولكنّ نظرية الانتشار الثقافي بحسب فكرة الدوائر المتّحدة المركز، لاقت انتقادات شديدة، ومنها ما وجّهه "إدوارد سابير" الذي ذكر ثلاث تحفّظات على فكرة التوزّع المستمرّ:

أولها: يمكن أن يكون الانتشار في أحد الاتّجاهات، أسرع منه في اتّجاه آخر.

ثانيها: قد يكون الشكل الأقدم تاريخياً، تعرّض لتعديلات في المركز، بحيث يخطئ الباحث في تحديد المركز الحقيقي لأصل الشكل.

وثالثها: قد يكون لتحرّكات السكان داخل منطقة التوزّع، آثار تؤدّي إلى سوء تأويل نموذج " الانتشار الثقافي ".

ولكن، هل يعني هذا التخلّي عن محاولات إعادة تركيب الاحتكاك التاريخي، بين الشعوب البدائية والتطوّر التاريخي للمناطق التي ليس لها تاريخ؟ والجواب: ليس ثمّة ما يبرّر هذه النتيجة. ويبدو أنّ هذا الجهد المبذول في هذا المجال، إذا ما أخذ كل شيء في الحسبان، جدير بالاهتمام والعناية، بشرطين:

1- أن يكون بالإمكان اعتبار المنطقة المختارة للتحليل، ذات وحدة تاريخيّة.

2- أن يكون الهدف من التحليل، تقرير احتمال وقوع التطوّرات التاريخية، وليس تقرير الحقيقة المطلقة عنها.[1]

ولكن، مهما تعدّدت الأدلّة على ظاهرة الانتشار الثقافي، فإنّه يتعذّر بالنسبة للمجتمعات غير المتعلّمة –وفي معظم الأحيان – التمييز بين العناصر الثقافية التي تسرّبت إليها من الخارج، وبين العناصر التي نشأت من داخلها. ويتّضح من وجهة النظر التجريبية، أنّ كلّ ثقافة بمفردها اقتبست عن الثقافات الأخرى، أشياء أكثر من التي اخترعتها بذاتها. والدليل على ذلك، الانتشار الواسع لعناصر ثقافية معقدة في مجالات التكنولوجية والفنون الشعبية، والمعتقدات الدينية والمؤسّسات الاجتماعية. [2]

وهكذا نجد، أنّ عملية الانتشار الثقافي تسير في اتّجاهين، حيث يستفيد كلّ مجتمع من ثقافة المجتمع الآخر الذي يحتكّ به .. ولا سيّما في المجتمعات الكبيرة، حيث تتمّ عملية الانتشار الثقافي من خلال اقتباس عناصر من ثقافات أخرى، وانتشار مقوّماتها وأنماطها الرئيسة والفرعية، بين فئات هذه المجموعة البشرية الكبيرة.

2/1- الاتّجاه التاريخي / النفسي:

[1] محمود، عبد الحليم. مرجع سابق، ص 227.
[2] لينتون، رالف. الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، مرجع سابق، ص 272.

بدأ الاتّجاه التاريخي / التجزيئي يتعدّل ويأخذ مسارات جديدة، حيث ظهرت فكرة توسيع المفهوم التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية، وذلك بفضل من تأثّروا بنتائج علم النفس، ولا سيّما "سيغموند فرويد" الذي عاش ما بين (1852-1939) وتلامذته، الذين رأوا أنّه بالإمكان فهم الثقافة من خلال التاريخ، مع الاستعانة ببعض مفهومات علم النفس وطرائقه التحليلية. وهذا ما كان له أثر كبير في الاتّجاه نحو الكشف عن الأنماط المختلفة للثقافات الإنسانية.

فقد رأت "روث بيندكيت" ورفاقها أنّ دراسة التاريخ، بوقائعه وأحداثه، لا تكفي لتفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية، وذلك لأن الظاهرة الثقافية بحدّ ذاتها مسألة معقّدة ومتشابكة العناصر. فهي تجمع بين التجربة الواقعية المكتسبة والتجربة السيكولوجية (النفسية)، وأنّ أية سمة من السمات الثقافية، تضمّ مزيجاً من النشاط الثقافي والنفسي بالنسبة لبيئة معيّنة. [1]

وعلى الرغم من ذلك، فإنّ أية ثقافة لا تؤلّف نظاماً مغلقاً أو قوالب جامدة، يجب أن تتطابق معها سلوكات أعضاء المجتمع جميعهم. ويتبيّن من حقيقة الثقافة السيكولوجية، أن الثقافة – بهذه الصفة – لا تستطيع أن تفعل شيئاً، لأنّها ليست سوى مجموع سلوكات الأشخاص الذين يؤلّفون مجتمعاً خاصاً (في وقت معين ومكان محدّد) وأنماط عادات التفكير عند هؤلاء الأشخاص.

[1] أبو زيد، العيسي. مرجع سابق، ص 227.

ولكنّ، على الرغم من أنّ هؤلاء الأشـــخـاص يلتزمون – عن طريق التعلّم والاعتياد– بأنماط الجماعة التي ولدوا فيها ونشـأوا، فإنّهم يختلفون في ردود أفعالهم تجاه المواقف الحياتية التي يتعرّضون لها معاً. كما أنّهم يختلفون أيضاً في مدى رغبة كلّ منهم في التغيير، إذ إنّ الثقافات جميعها عرضة للتغيير. [1]

وهذا يدلّل على مرونة الثقافة، وإتاحتها فرصـــة الاختيار لأفرادها .. بحيث أنّ القيم التي يتمسّـــك بها مجتمع ما وتميزه من المجتمعات الأخرى، ليســـت كلّها ثابتة بالمطلق وتنتقل إلى حياة الأجيال المتعاقبة، وإنّما ثمّة قيم متغيّرة، تتغيّر بحســب التغيّرات الاجتماعية والثقافية التي يمرّ بها المجتمع.

ويعتبر كتاب " أنماط الثقافة " الذي نشـــرته "بيندكيت" عام 1932، البداية الحقيقية لبلورة الاتّجاه التاريخي / النفســـي في دراســـة الثقافات الإنســـانية. حيث أوضـحت الدراسـة أنّه من الضـرورة النظرة إلى الثقافات في صـورتها الإجمالية، أي كما هي في تشـــكيلها العام. وذلك، لأنّ لكلّ ثقافة مركز خاص تتمحور حوله وتشـــكّل نموذجاً خاصاً بها، يميزها عن الثقافات الأخرى.

ومن هذا المنظور، قامت "بيندكيت" بإجراء دراســـة مقارنة بين ثقافات بدائية متعدّدة، وخلصـــت إلى أنّ ثمّة علاقات قائمة بين النموذج الثقافي العام ومظاهر الشـــخصـــيـة، وهـذا مـا ينعكس لـدى الأفراد في تلـك المجتمعـات.

[1] مؤنس، محمد. مرجع سابق، ص 89.

1

ومن الممكن دراسة مظاهر التكيّف المورفولوجي (الشكلي) للنوع البشري بالمصطلحات المألوفة في علم الأحياء، وفي الوقت نفسه، كان لا بدّ من تطوير أساليب فنيّة جديدة لوصف مظاهر التكيّف السلوكي والنفسي، ويعدّ مفهوم الثقافة من أهم المفهومات التي طوّرت في هذا المجال، وأكثرها فائدة وحيوية، ومع أنّ هذا المفهوم اقتصر في السابق على النواحي الوصفية، فإنّه – على أضعف تقدير – زوّدنا بطريقة محدّدة للتعرّف إلى النتاج النهائي لعمليات التكيّف، فوضع بالتالي أساساً للمقابلة بين النماذج المختلفة لطرق التكيّف.[2]

لقد شهد الاتّجاه التاريخي/ النفسي في الدراسات الأنثروبولوجية، ظهوراً متميّزاً في الربع الثاني من القرن العشرين، مترافقاً مع انتشار مدرسة التحليل النفسي التي أنشأها " فرويد" واستمدّ منها الأنثروبولوجيين الكثير من المفاهيم النفسية، لتحديد العلاقات المتبادلة بين الفرد وثقافته في إطار المنظومة الثقافية والاجتماعية.

وقد انصبّ اهتمام أصحاب هذا الاتّجاه، على دراسة الموضوعات المتعلّقة بالتمييز الثقافي / الاجتماعي، بالاستناد إلى الميزات النفسية السائدة بين الأفراد والجماعات. وتعدّ دراسة "بيندكيت"، بعنوان " الكريزنتيموم والسيف The Chrsyanthemum and the Sword، عام 1946 " من أهمّ الدراسات

[1] الحصري، ساطع. مرجع سابق، ص 65.
[2] لينتون، رالف. الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، مرجع سابق، ص 196.

في هذا الاتّجاه، حيث بحثت في علاقة الثقافة بالشخصيّة اليابانية .

وهذا ما ساعد في بلورة السياسة الأمريكية تجاه استسلام المحاربين اليابانيين في أثناء الحرب العالمية الثانية. وأوضحت الدراسة أنّ الجنود اليابانيين كانوا سيرفضون الاستسلام بصورة مطلقة، ويستمرون في القتال حتى الموت، إلاّ أنّ تأثير مبادئ الطاعة والولاء للإمبراطور على هؤلاء الجنود، جعلهم يستجيبون لتعليماته ويخضعون لأوامره. [1]

ولكن يرى بعض العلماء _ وهو محقّ في ذلك – أنّ الانشغال الزائد بالأشكال الخارجية للثقافة، قد أثّر سلبياً في المحاولات الرامية إلى تفهّم دلالتها السيكولوجية. ومن المعروف أن الحقيقة النهائية للثقافة، هي سيكولوجية.. ونقصد بذلك، أنّ وجود الثقافة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بوجود أناس يديرون مؤسّساتها. وهذه الحقيقة السيكولوجية للثقافة تفسّر الاستقرار الثقافي، أو بالأحرى تفسّر السبب الذي من أجله تشعر الكائنات البشرية بارتياح كبير عندما تعيش وفق نظام رتيب معروف.

وهذه الحقيقة تفسّر أيضاً آلية التغيّر الثقافي، فالأفراد في كلّ مجتمع يملكون قابليات وحوافز وميولاً، وقدرات تؤدّي دورها ضمن إطار القالب الثقافي العام، وتسهم باستمرار في مراجعة التقاليد القائمة، وإدخال تحسينات عليها.[2]

[1] نفس المرجع السابق، ص 280.
[2] لينتون، رالف. دراسة الإنسان، مرجع سابق، ص 285.

وكان من نتيجة ذلك، ظهور مدرسة ثقافية نفسية (أمريكية) من روادها: (كلايد كلاكهون، مرغريت ميد، رالف لينتون) وغيرهم ممّن اعتمدوا على مفهوم بناء الشخصيّة الأساسي الذي يشير إلى مجموعة الخصائص السيكولوجية والسلوكية، التي يبدو أنّها تتطابق مع كلّ النظم والعناصر والسمات التي تؤلّف أية ثقافة. إذ إنّه على الرغم من أنّ النمط الثقافي السائد في إي مجتمع، لا يمكن أن يزيد – أو يقلّل – من وجود الفوارق الفردية في نطاق الثقافة الواحدة، إلاّ أن تلك العلاقة القائمة بين الأنماط الثقافية والشخصيّة الفردية، وما تحدث من تأثيرات متبادلة بينهما، لا يجوز إهمالها، بل يجب أخذها في الحسبان أثناء دراسة الثقافات الإنسانية.[1]

إنّ الأساس السيكولوجي للقوانين الاجتماعية القائمة، مثل: (أنماط السلوك الثابتة، والأعراف والتقاليد، والعادات والقيم)، هو تكوين أطر استناد مشتركة، ناتجة عن احتكاك الأفراد بعضهم ببعض؛ وإذا ما تكوّنت مثل هذه الأطر الاستنادية وتغلغلت في أعماق الفرد، أصبحت عاملاً هامّاً في تحديد ردود فعله أو تعديلها، في الأوضاع التي سيواجهها فيما بعد، سواء كانت اجتماعية أو غير اجتماعية، ولا سيّما في الحالات التي لا يكون الحافز فيها جيّد التنظيم، أي في حالة تجربة ليس لها سوابق في السلوك الذي اعتاد عليه الفرد.[2]

وضمن هذا الاتّجاه أيضاً، اهتمّ "مالينوفسكي" بنظرية فرويد وكتاباته النفسيّة /

[1] أبو زيد، العيسي. مرجع سابق، ص89.
[2] أبو هلال، أحمد. مرجع سابق، ص 120.

وعلاقة ذلك بالمحرّمات الجنسيّة، من خلال المادة التي جمعها ميدانياً من سكان جزيرة (التروبرياند). إلاّ أنّه عارض تفسير فرويد لعلاقة الابن بالأم وغيرته من الأب في إطار ما أسماه فرويد بـــ (عقدة أوديب)، وقدّم بدلاّ منها تفسيراً وظيفيّاً، توصّل من خلاله إلى أنّ تحريم العلاقات الجنسية المكوّنة للعائلة الموحّدة (النووية) والتي تشمل: " الأم والأبناء والأخوة والأخوات " هو الذي يمنع ما قد ينشأ من صراعات داخلية، بسبب الغيرة أو التنافس ..

وهذا ما يحفظ بالتالي تماسك الأسرة، ويمنع تفكّك أواصرها وتهديم كيانها، وما ينجم عنه من ضعف المجتمع العام، وتهديد وحدته وتماسكه. [1]

وخلاصـــة القول، إنّ هذه الاتّجاهات بأفكارها وتطبيقاتها، مثّلت مرحلة انتقالية بين الأنثروبولوجيا الكلاسيكية التي كانت تعتمد على التخمينات والتفسيرات النظرية فحسب، وبين الأنثروبولوجيا الحديثة التي بدأت مع النصف الثاني من القرن العشرين معتمدة على الدراسات الميدانية / التحليلية، والتي تعنى بالجوانب الاجتماعية الثقافية المكوّنة للفكر الأنثروبولوجي.

وهذا ما أدّى بالتالي إلى ظهور التخصّص في علم الأنثروبولوجيا، ممّا ساعد في إرساء المبادئ الأساسيّة للأنثروبولوجيا المعاصرة.

[1] رشوان، حسين عبد الحميد أحمد. مرجع سابق، ص 78.

2-الاتّجاه البنائي / الوظيفي:

ترافق نشـوء هذا الاتّجاه مع ظهور اتّجاه الانتشـار الثقافي، كردّ فعل عنيف على النظرية التطوّرية. وقد تميّز الاتّجاه البنائي، بأنّه ليس تطوّرياً وليس تاريخياً، حيث ركّز على دراسة الثقافات الإنسانية كلّ على حدة، في واقعها الحالي المكاني والزماني.

وهذا ما جعله يختلف عن الدراسـات التاريخيّة، لأنّه اعتمد العلم في دراسـة الثقافات الإنسانية كظاهرة، يجب البحث في عناصرها والكشف عن العلاقات القائمة فيما بينها، ومن ثمّ العلاقات القائمة فيما بينها وبين الظواهر الأخرى.[1]

يعود الفضل في تبلور الاتّجاه البنائي / الوظيفي في الدراسات الأنثروبولوجية، إلى أفكار العالمين البريطانيين، (برونسلو مالينوفسكي) و (راد كليف براون)، اللذين عاشا في أواخر القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين. ويدينان باتّجاهاتهما النظرية، إلى أفكار عالم الاجتماع "إميل دوركايم" الذي ركّز اهتمامه على الطريقة التي تعمل بها المجتمعات الإنسـانية ووظائف نظمها الاجتماعية، وليس على تاريخ تطوّر هذه المجتمعات والسمات العامة لثقافاتها.

ولعلّ "كلود ليفي ستروس" الوحيد بين البنائيين الفرنسيين، الذي يستخدم كلمة (بناء أو بنائية) صـراحة في عناوين كتبه ومقالاته، ابتداء من مقاله الذي كتبه عام 1945، عن " التحليل البنائي " في اللغويات وفي الأنثروبولوجيا، والذي يعتبر – بحق

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 164.

—" ميثاق " النزعة البنائية، وإلى كتاب " الأبنية الأولية للقرابة " الذي كان سـبباً في ذيوع اسمه وشهرته، والذي يعتبره الكثيرون أهمّ وأفضل إنجاز في الأنثروبولوجيا الفرنسية على الإطلاق .. ومن ثمّ إلى كتابه " الأنثروبولوجيا البنائية ".

وعلى الرغم من الانتقادات التي وجّهت إليه، فلا يزال يؤمن بأنّ البنيوية (البنائية) هي أكثر المناهج قدرة على تحليل المعلومات وفهم الأثنوجرافيا وتقريبها إلى الأذهان، وإنّها في الوقت نفسـه، أفضـل وسـيلة يمكن بها تجاوز المعلومات والوقائع العيانية المشـخّصـة، والوصـول إلى الخصـائص العامة للعقل الإنسـاني، فقد أفلح في أن يحقّق للبنائية ما لم يحقّقه غيره، مع أنّه لم يقم بدراسـات حقلية بين الشـعوب المتخلّفة (البدائية)، وحتى حين قام بدراساته في (البرازيل والباكستان) كان يمضي فترات قصيرة ومتباعدة بين الجماعات التي درسـها. وخرج بالبنائية من مجال الأنثروبولوجيا، إلى ميادين الفكر المختلفة، الواسـعة والرحيبة، وجعل منها اتجاهاً فكرياً ومنهجياً يهدف إلى الكشـف عن العمليات العقلية العامة، وله تطبيقاته في الأدب والفلسـفة واللغة والميثولوجيا (الأسـطورة) والدين والفن. وبلغ من قوّة البنائية أن أصـبحت في البداية، تمثّل تهديداً مباشراً للوجودية التي تركّز على الفرد والسلوك الفردي.[1]

فالاتّجاه البنائي الوظيفي، يعبّر في جملته عن منهج دراسـي تمّ التوصّـل إليه من خلال المقابلة (الموازنة) بين الجماعات الإنسـانية (المجتمعات) والكائنات البشـرية

[1] أبو زيد، العيسي. مرجع سابق، ص 83.

(الأفراد). ولم يعد استخدامه مقصوراً على الأنثروبولوجيين، وإنّما تناولـــه أيضاً علماء الاجتماع بالفحص والتطبيق والتعديل، على يد "تلكوت بارســونز، وجورج ميرتون". كما ارتبط أيضاً بالعلوم الطبيعية، ولا سيّما علوم الحياة والكيمياء[1].

فقد رأى "مالينوفسكي" أنّ الأفراد يمكنهم أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة، أو أسـلوباً معيّناً للحياة، يضـمن لهم إشـباع حاجاتهم الأسـاسـية، البيولوجية والنفسـيّة والاجتماعية. ولذلك ربط الثقافة – بجوانبها المختلفة، المادية والروحية والاجتماعية، بالاحتياجات الإنسانية.

فالاهتمام بالبنية Structure، كترابط منظّم وخفي للعناصر الثقافية، يساعد النموذج في تفسيره وراء العلاقات الاجتماعية، يوازيه في اتجاه آخر اهتمام وظائفي بالمعنى الذي يحدّده / مالينوفسكي /، والذي تعني فيه الوظيفة: تلبية حاجة من الحاجات، ويكون فيها التحليل الوظيفي هو ذلك الذي: " يسمح بتحديد العلاقة بين العمل الثقافي والحاجة عند الإنسان، سواء كانت هذه الحاجة أولية أو فرعية ثانوية "[2]

فالثقافة كيان كلّي وظيفي متكامل، يماثل الكائن الحي بحيث لا يمكن فهم دور وظيفة أي عضو فيه، إلاّ من خلال معرفة علاقته بأعضاء الجسم الأخرى، وإنّ دراسة هذه الوظيفة بالتالي، تمكّن الباحث الإثنولوجي من اكتشـــاف ماهية كل عنصـــر وضرورته، في هذا الكيان المتكامل.

[1] الخشاب، أحمد. مرجع سابق، ص 120.
[2] لبيب، الطاهر. سوسيولوجيا الثقافة، اللاذقية، سوريا: دار الحوار،1987، ص 12.

ولذلك، دعا "مالينوفسكي" إلى دراسة وظيفة كلّ عنصر ثقافي، عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره، وفي إطار علاقته مع العناصر الأخرى. وهذا يقتضي دراسة الثقافات الإنسانية كلّ على حدة، وكما هي في وضعها الراهن، وليس كما كانت أو كيف تغيّرت.

وبذلك يكون "مالينوفسكي" قد قدّم مفهوم(الوظيفة) كأداة منهجيّة تمكّن الباحث الأنثروبولوجي من إجراء ملاحظاته بطريقة مركّزة ومتكاملة، في أثناء وصفه للثقافة البدائية.[1]

أمّا "براون" فقد قام من جهته، بدور رئيس في تدعيم أسس الاتّجاه البنائي / الوظيفي، في الدراسات الأنثروبولوجية، وذلك مع بداية القرن العشرين، موجّهاً الأثنولوجيا نحو الدراسات المتزامنة، وليس نحو التفسير البيولوجي للثقافة كما فعل "مالينوفسكي".

اعتمد "براون" في دراسة المجتمع وتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً اجتماعياً، بنائياً ووظيفياً، على فكرة الوظيفية التي نادى بها "دوركايم" والتي تقوم على دراسة المجتمعات الإنسانية، من خلال المطابقة (المماثلة) بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية، كما هي الحال في المشابهة بين البناء الجسمي المتكامل عند الإنسان، والبناء الاجتماعي المتكامل في المجتمعات الإنسانية.

[1] نفس المرجع السابق، ص 55.

ويوضـــح "براون" طبيعة هذا (البناء الاجتماعي) بأنّه يندرج تحت هذا المفهوم، العلاقات الاجتماعية كلّها، والتي تقوم بين شخص وآخر. كما يدخل في ذلك التمايز القائم بين الأفراد والطبقات، بحســـب أدوارهم الاجتماعية، والعلاقات التي تنظّم هذه الأدوار. وكما يستمرّ تجدّد بناء الكائن العضوي طوال حياته، فكذلك تتجدّد الحياة الاجتماعية مع استمرارية البناء الاجتماعي في علاقاته وتماسكه.

واستناداً إلى ذلك، يصبح الاعتراف بالتنوّع الثقافي بين المجتمعات – مهما كان شـــكله- إحدى الخطوات الهامة في تطوّر علم الأنثروبولوجيا، انطلاقاً من النقاط التالية[1]:

1- إنّ الثقافة تعبير عن سلوك شعب ما، وعن قواعد هذا الشعب.

2- إنّ مجموع التنوّعات في العقيدة والســـلوك الفرديين لدى أفراد جماعة معيّنة وفي زمن معيّن، يحدّد ثقافة تلك الجماعة .. وهذا صـــحيح بالنســـبة للثقافات الفرعية في الوحدات الصغيرة، داخل الكلّ الاجتماعي.

3- ليســـت العقيدة والســـلوك في أي مجتمع، أبداً نتاج الصـــدفة، بل يتحوّلان وفق قواعد راسخة.

4- يجب استنباط هذه القواعد بواسطة الاستقراء من التوافق الملاحظ في العقائد وأنماط الســـلوك لدى جماعة ما.. وهي تشـــمل نماذج ثقافة تلك

[1] الخشاب، أحمد. مرجع سابق، ص 123.

الجماعة.

5- كلّما صغر حجم الجماعة، كانت نماذج عقائدها وسلوكياتها، أكثر تجانساً فيما إذا تساوت الأمور الأخرى.

6- قد يظهر لدى الفئات الاختصاصية، تنوّع في حقل اختصاصها أكثر اتّساعاً ممّا يظهر لدى الفئات الأخرى، المساوية لها في الحجم، بين الجماعة الكليّة.[1]

وإزاء هذه الأمور مجتمعة، لا بدّ من الاعتراف بأهميّة مسألة التجانس الثقافي والتنافر الثقافي، في الدراسات الأثنولوجية، وفي أثناء مناقشة النظريات الأنثروبولوجية.

وإذا كان "مالينوفسكي" أخذ بفكرة النظم الاجتماعية لتأمين الحاجات البيولوجية والنفسية للأفراد، بينما اتّجه "براون" نحو مسألة تماسك النظام الاجتماعي، من حيث مكوّناته وعلاقاته، فأنّهما رفضا معاً فكرة تجزئة العناصر الثقافية (مكوّنات البناء الاجتماعي) إلى وحدات صغيرة يقوم الباحث بدراسة منشئها أو انتشارها وتطوّرها..

واعتمدا بدلاً من ذلك على الدراسات الميدانية، لوصف الثقافات بوضعها الراهن. وقد وجد هذا الاتّجاه قبولاً واسعاً لدى المهتمّين بدراسة الثقافات الإنسانية في

[1] الخشاب، أحمد، مرجع سابق، ص 125.

النصف الأوّل من القرن العشرين، ولا سيّما بين الأنثروبولوجيين الأوروبيين، الذين انتشروا في المستعمرات لإجراء دراسات ميدانية، وجمع المواد الأولية اللازمة لوصف الثقافات في هذه المجتمعات، وتحليلها في إطارها الواقعي وكما هي في وضعها الراهن.

ثالثاً– الأنثروبولوجيا والحداثة:

1–التطور الاجتماعي:

في السنوات الأولى لعلم الإنسان، كان الرأي السائد لعلماء الأنثروبولوجيا وغيرهم من العلماء هو أن الثقافة تتطور بشكل عام (أو تتطور) بطريقة موحدة وتقدمية.

التطوريون أو أصحاب المذهب التطوري بناءً على نجاح نظرية التطور لداروين، ونشير نحن هنا إلى النجاح فيما يخص الجانب الثقافي والحضاري عموما ولكن التطور الذي كان يقصده "داروين" هو التطور الإنساني فهذا لا يعنينا فديننا الحنيف قد فصل في الأمر ولا يحتاج برهنة، ولكن لم يستلهم الكثير من مساهمته المركزية في مفهوم الانتقاء الطبيعي، سعى إلى تتبع تطور الثقافة عبر الزمن، تمامًا كما كان يُعتقد أن الأنواع تتطور إلى أشكال معقدة متزايدة، كذلك كان يُعتقد أن الثقافات تتطور من حالات بسيطة إلى حالات معقدة في البداية، حيث كان يعتقد العديد من العلماء أن معظم المجتمعات تمر بنفس سلسلة المراحل أو ما شابهها للوصول، في الأخير إلى نهاية مشتركة، إذ كان

يُعتقد أن التغيير ينشأ بشكل أساسي من داخل الثقافة، لذلك كان يُعتقد أن التنمية محددة داخليًا[1].

تم قبول التقدم التطوري للمجتمعات من قبل البعض منذ عصر التنوير كان الفلاسفة الاجتماعيون والأخلاقيون الفرنسيون والأسكتلنديون يستخدمون المخططات التطورية خلال القرن الثامن عشر، ومن بين هؤلاء كان مونتسكيو، الذي اقترح مخططًا تطوريًا يتكون من ثلاث مراحل: الصيد أو الوحشية، والرعي أو البربرية، والحضارة .أصبح هذا **التقسيم الثلاثي** شائعًا للغاية بين المنظرين الاجتماعيين في القرن التاسع عشر، مع تبني شخصيات مثل تايلور ومورغان نسخة أو أخرى من هذا المخطط[2].

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، نجح الأوروبيون في استكشاف وغزو واستعمار العديد من أجزاء العالم غير المعروفة (لهم) حتى الآن أدت هذه الحركة العالمية إلى منتجات جديدة وشعوب عاشت أساليب حياة مختلفة تمامًا عن الأوروبية أثبتت إشكالية سياسية وعلمية، نشأ علم الأنثروبولوجيا بدءًا من هذه النظريات الاجتماعية المبكرة، إلى حد كبير استجابة لهذا اللقاء بين الثقافات المتباينة لمجتمعات مختلفة تمامًا. كان الهدف

[1] Heather Long and Kelly Chakov, Social Evolutionism, https://anthropology.ua.edu/theory/social-evolutionism, ترجمة زيوش سعيد، تاريخ الزيارة: 2021-01-01.

[2] Seymour-Smith, Charlotte 1986 Macmillan Dictionary of Anthropology. Macmillan, New York.2021-01-01 ترجمة زيوش سعيد، تاريخ الزيارة: https://anthropology.ua.edu/theory.

من **التطور الثقافي** –أول نظرية إثنولوجية منهجية للأنثروبولوجيا – المساعدة في تفسير هذا التنوع بين شعوب العالم.

كانت فكرة تقسيم السجل الإثنولوجي إلى **مراحل تطورية تتراوح من البدائية إلى الحضارة أساسية للأفكار الجديدة للتطور الاجتماعي في القرن التاسع عشر** .بالاعتماد على فكر التنوير وعمل داروين، والأدلة الجديدة عبر الثقافات التاريخية والأثرية، ظهر جيل كامل من منظري التطور الاجتماعي مثل تايلور ومورجان، حيث طور هؤلاء المنظرون مخططات منافسة للتقدم الاجتماعي والثقافي الشامل، بالإضافة إلى أصول المؤسسات المختلفة مثل الدين والزواج والأسرة.

اختلف **"إدوارد ب. تايلور"** مع ادعاء بعض الكتاب الفرنسيين والإنجليز في أوائل القرن التاسع عشر، بقيادة الكونت "جوزيف دي مايستر"، بأن مجموعات مثل الهنود الأمريكيين والشعوب الأصلية الأخرى كانت أمثلة على **الانحطاط الثقافي**. وأعرب عن اعتقاده أن الشعوب في مواقع مختلفة قادرة على قدم المساواة على التطور والتقدم خلال المراحل .المجموعات البدائية "وصلت إلى موقعها بالتعلم وليس عن طريق النسيان "أكد تايلور أن الثقافة تطورت من البسيط إلى المعقد، وأن جميع المجتمعات مرت عبر المراحل الأساسية الثلاثة للتطور التي اقترحها "مونتسكيو": من الوحشية إلى البربرية إلى الحضارة، ولذلك فإن "التقدم" كان ممكناً للجميع[1] لحساب التنوع الثقافي، افترض تايلور وغيره

[1] انظر موقع: https://anthropology.ua.edu/theory/social-evolutionism/، تاريخ الزيارة: 02-01-2021.

من أنصار التطور الأوائل أن **المجتمعات المعاصرة المختلفة كانت في مراحل مختلفة من التطور**.

ووفقًا لهذا الرأي، فإن شعوب العصر "الأبسط" لم تصل بعد إلى مراحل "أعلى ."وهكذا كان يُعتقد أن المجتمعات المعاصرة الأبسط تشبه المجتمعات القديمة في المجتمعات الأكثر تقدما، إذ يمكن للمرء رؤية دليل على التطور الثقافي من خلال وجود ما يسميه "تايلور" **قيد الحياة** –آثار العادات السابقة التي تعيش في الثقافات الوقت الحاضر .يعتبر صنع الفخار مثالاً على البقاء بالمعنى الذي استخدمه "تايلور" .كانت الشعوب السابقة تصنع قدور طبخها من الفخار اليوم نصنعها عمومًا من المعدن لأنها أكثر متانة، لكننا ما زلنا نفضل الأطباق المصنوعة من الطين.

يعتقد "تايلور" أن هناك نوعًا من الوحدة النفسية بين جميع الشعوب التي فسرت التسلسلات التطورية الموازية في التقاليد الثقافية المختلفة، بعبارة أخرى بسبب أوجه التشابه الأساسية في الإطار العقلي لجميع الشعوب، غالبًا ما تجد المجتمعات المختلفة نفس الحلول لنفس المشاكل بشكل مستقل، ولكنه أشار أيضًا إلى أن السمات الثقافية قد تنتشر من مجتمع إلى آخر عن طريق الانتشار البسيط – استعارة ثقافة ما لسمات تنتمي إلى أخرى كنتيجة للتواصل بين الاثنين.

كان "**لويس هنري مورغان**" من أنصار التطور الثقافي الموحد والتقدمي في القرن التاسع عشر. أصبح "مورغان" المحامي في شمال ولاية نيويورك، مهتمًا بهنود الإيروكوا

المحليين ودافع عن تحفظهم في قضية منحة الأرض، وامتنانًا تبنى "مورغان" الإيروكوا، الذي اعتبرهم "متوحشين نبلاء "في أشهر أعماله المجتمع القديم، حيث قسم مورغان تطور الثقافة البشرية إلى نفس المراحل الأساسية الثلاث التي اقترحها تايلور (الوحشية، البربرية، والحضارة) .لكنه أيضًا قسَّم الوحشية والهمجية إلى أجزاء عليا، ومتوسطة، وسفلية[1]، مقدمًا أمثلة معاصرة لكل من هذه المراحل الثلاث، تميزت كل مرحلة بالتطور التكنولوجي وكان لها ارتباط في أنماط المعيشة والزواج والأسرة والتنظيم السياسي، في المجتمع القديم علق مورغان، "بما أنه لا يمكن إنكار وجود أجزاء من الأسرة البشرية في حالة من الوحشية، وأجزاء أخرى في حالة من الهمجية، وأجزاء أخرى في حالة حضارية، يبدو بنفس القدر أن هذه الشروط الثلاثة المتميزة متصلة ببعضها البعض في تسلسل طبيعي وكذلك ضروري من التقدم ".[2]

ميز "مورغان" هذه المراحل من التطور من حيث الإنجاز التكنولوجي، وبالتالي كان لكل منها معاييره المحددة تميزت الوحشية الوسطى باقتناء نظام غذائي للأسماك واكتشاف النار؛ الوحشية العليا بالقوس والسهم؛ انخفاض البربرية بالفخار؛ البربرية الوسطى بتربية الحيوانات والزراعة المروية؛ البربرية العلوية بصناعة الحديد؛ والحضارة بالأبجدية الصوتية،[3] بالنسبة لمورغان افترض أن مراحل التطور التكنولوجي مرتبطة بسلسلة من

[1] انظر موقع https://socialsci.libretexts.org/، تاريخ الزيارة: 02-01-2021.
[2] نفس الموقع السابق.
[3] الخشاب، أحمد، مرجع سابق، ص 145.

الأنماط الثقافية المختلفة، على سبيل المثال تكهن بأن الأسرة تطورت عبر ست مراحل، بدأ المجتمع البشري ك "حشد يعيش في حالة من الاختلاط"، بدون أي محظورات جنسية ولا بنية عائلية حقيقية، في المرحلة التالية تزوجت مجموعة من الإخوة من مجموعة من الأخوات وسمح بالتزاوج بين الأخ والأخت، في المرحلة الثالثة كان الزواج الجماعي يمارس ولكن لم يسمح للأخوة والأخوات بالتزاوج، المرحلة الرابعة، التي يُفترض أنها تطورت أثناء الهمجية، تميزت بذكر وأنثى متزاوجين بشكل فضفاض يعيشان مع أشخاص آخرين، في المرحلة التالية نشأت الأسر المهيمنة على الزوج والتي يمكن للزوج فيها أن يكون له أكثر من زوجة في وقت واحد.

أخيرا يعتقد "مورغان" أن الوحدات الأسرية أصبحت تدريجية أصغر وأكثر اكتفاءً بذاتها مع تطور المجتمع البشري، ومع ذلك فإن تسلسله المفترض لتطور الأسرة لا يدعمه الكم الهائل من البيانات الإثنوغرافية التي تم جمعها منذ عصره، على سبيل المثال لا يوجد مجتمع حديث قد يسميه مورغان متوحشًا ينغمس في الزواج الجماعي أو يسمح بالتزاوج بين الأخ والأخت[1].

على الرغم من أن أعمالهم سعت إلى غايات متشابهة، إلا أن كل من المنظرين التطوريين كان لديهم أفكار مختلفة جدًا حول دراساتهم وبؤر تركيزها .يختلف عن مورغان، ركز **السير "جيمس فريزر"** على تطور الدين ونظر إلى تقدم المجتمع أو الثقافة

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 96.

من وجهة نظر تطور النظم النفسية أو العقلية .من بين المنظرين التطوريين الآخرين الذين وضعوا مخططات لتنمية المجتمع بما في ذلك المؤسسات الدينية والقرابية والقانونية المختلفة، كان "مين وماكليلان وباشوفن".

من المهم أن نلاحظ أن معظم المخططات التطورية المبكرة كانت أحادية الخط، يشير **التطور أحادي الخط** إلى فكرة أن هناك تسلسلًا محددًا للمراحل التي تمر بها جميع المجموعات في مرحلة ما على الرغم من أن وتيرة التقدم خلال هذه المراحل، ستختلف بشكل كبير، تم اعتبار المجموعات في الماضي والحاضر، على نفس المستوى أو مرحلة التطوير نفسها تقريبًا .وبالتالي يمكن اعتبار المجموعة "البدائية" المعاصرة كممثل لمرحلة سابقة في تطوير أنواع أكثر تقدمًا.

يمكن تلخيص أفكار أنصار التطور في هذا الجزء من ثقافة تايلور البدائية التي تلاحظ: "حالة الثقافة بين المجتمعات المختلفة للبشرية ... هي موضوع ملائم لدراسة قوانين الفكر والفعل البشري .فمن ناحية قد يُعزى التوحيد الذي يسود الحضارة إلى حد كبير إلى العمل الموحد لأسباب موحدة؛ بينما من ناحية أخرى يمكن اعتبار درجاتها المختلفة بمثابة مراحل تطور أو تطور كل منها نتيجة للتاريخ السابق، وعلى وشك القيام بدورها الصحيح في تشكيل تاريخ المستقبل[1].

2-الأنثروبولوجيا ما بعد الحداثة:

[1] انظر موقع: https://socialsci.libretexts.org/، تاريخ الزيارة: 03-01-2021.

هو نهج نظري نشأ في الثمانينيات لشرح فترة تاريخية ما بعد الحداثة، والتي من المقبول عمومًا أنها بدأت في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات هذه فترة مرتبطة بالحرب الباردة والاضطرابات الاجتماعية في أجزاء كثيرة من العالم، يصعب تعريف النهج النظري لما بعد الحداثة وتحديده يتم الاستهزاء به بشكل عام في العلوم الطبيعية، ومناقشته في العلوم الاجتماعية، وأكثر قبولًا في العلوم الإنسانية في الماضي خلقت المناقشات حول مزايا نهج ما بعد الحداثة انقسامات بين أعضاء هيئة التدريس والسخرية بين التخصصات .يتحدى نهج ما بعد الحداثة "الطبيعة المسيطرة والمتسلطة للعلم والعقل" ويركز على "... تقسيم الحقيقة والمعايير والمثل الأعلى إلى ما تم تفكيكه وإلى ما هو على وشك التفكيك، وإنكار حق أي عقيدة أو نظرية أو وحي جديد مسبقًا في أن تحل محل قواعد الماضي المهملة [1]." إنه المعادل الأكاديمي للصخب الاجتماعي ضد المؤسسة التي نشأت في الستينيات والسبعينيات.

يدعي ما بعد الحداثيين أنه من المستحيل لأي شخص أن يكون لديه معرفة موضوعية ومحايدة بثقافة أخرى، يأتي هذا الرأي من فكرة أننا جميعًا نفسر العالم من حولنا بطريقتنا الخاصة وفقًا لغتنا وخلفيتنا الثقافية وتجاربنا الشخصية .

بعبارة أخرى لكل شخص وجهات نظره الخاصة بناءً على سياقاته الاجتماعية والشخصية بسبب هذا الجانب من الطبيعة البشرية، لا يمكن لعلماء الأنثروبولوجيا أن

[1] فهيم، حسين. مرجع سابق، ص 102.

يكونوا مراقبين محايدين للثقافات الأخرى، عندما يقوم علماء الأنثروبولوجيا ما بعد الحداثة بتحليل المجتمعات المختلفة، فإنهم حساسون لهذا القيد إنهم لا يفترضون أن طريقتهم في تصور الثقافة هي الطريقة الوحيدة يعتقد ما بعد الحداثيين أن النصوص الأنثروبولوجية تتأثر بالسياقات السياسية والاجتماعية التي كتبت فيها، وبالتالي من غير المعقول أن يحاول المؤلفون تبرير تفسيراتهم والتحيزات الكامنة باستخدام مفهوم الموضوعية، حيث يدعي ما بعد الحداثيين أن قبول تفسير ما هو في النهاية مسألة قوة وثروة بعبارة أخرى، نميل إلى إضفاء الشرعية على تصريحات معينة يمثلها أولئك الذين يتمتعون بميزة سياسية واقتصادية من أجل زيادة الحساسية تجاه أولئك الذين ليسوا جزءًا من الثقافة السائدة، غالبًا ما يروج ما بعد الحداثيين لوجهات نظر ناقصة التمثيل، مثل آراء الأقليات العرقية والنساء وغيرهم .

أعاد أتباع ما بعد الحداثة أيضًا التركيز على السلوك الفردي والذي أصبح يُعرف باسم نظرية الوكالة، تدرس مناهج الوكالة كيفية تشكيل الوكلاء الفرديين للثقافة إذ قام علماء الأنثروبولوجيا ما بعد الحداثة علماء الأنثروبولوجيا الآخرين بتقديم فرصة لإعادة النظر في مقارباتهم للتحليل الثقافي من خلال الدخول في عصر الأنثروبولوجيا الانعكاسية، حيث يحاول عالم الأنثروبولوجيا أن يصبح حساسًا لافتراضاته اللاواعية على سبيل المثال، ينظر علماء الأنثروبولوجيا الآن فيما إذا كان ينبغي عليهم تضمين الإثنوغرافيا تفسيرات مختلفة للثقافة غير تفسيراتهم الخاصة علاوة على ذلك

يحتاج علماء الأنثروبولوجيا إلى تحديد معاييرهم الخاصة لاختيار نوع المعلومات التي يمكن اعتبارها معرفة يقود هذا التفكير علماء الأنثروبولوجيا إلى إثراء عملهم في الوقت نفسه، غالبًا ما تؤدي تحديات ما بعد الحداثيين إلى رد فعل عنيف من أولئك الذين يشعرون أن مفاهيمهم مهددة، إذ يدعي بعض علماء الأنثروبولوجيا أن ما بعد الحداثيين يعتمدون على نموذج أخلاقي معين بدلاً من البيانات التجريبية أو الأساليب العلمية، تم بناء هذا النموذج الأخلاقي من خلال التعاطف مع أولئك الذين لا يمتلكون نفس الامتياز الذي يتمتع به التيار السائد في المجتمعات الغربية، لذلك ستقوض ما بعد الحداثة شرعية الأنثروبولوجيا من خلال إدخال هذا التحيز السياسي[1].

يأتي النقد النموذجي الآخر لما بعد الحداثة من الخوف من وجهة النظر النسبية للغاية يجادل هؤلاء النقاد بأن ما بعد الحداثة ستؤدي إلى العدمية، لأنها لا تفترض أرضية مشتركة للتفاهم، حيث يدعي بعض المعارضين أن ما بعد الحداثة ستقوض حقوق الإنسان العالمية وستبرر الديكتاتورية، ما بعد الحداثة هو نقاش مستمر خاصة فيما يتعلق بما إذا كان يجب أن تعتمد الأنثروبولوجيا على المناهج العلمية أو الإنسانية[2].

[1] كلاكهون، كلايد. مرجع سابق، ص 108.

[2] Margolis, Maxine L. "Cultural Materialism." In Theory in Social and Cultural Anthropology, Vol. 1, edited by R. Jon McGee and Richard L. Warms, 147-149. Thousand Oaks, CA: SAGE Reference, 2013. ترجمة د.زيوش سعيد

3-نقاط رد الفعل:

كان أحد المناظرات التي نشأت من منظور التطوريين هو ما إذا كانت الحضارة قد تطورت من حالة من الوحشية أو تعايشت دائمًا مع الجماعات البدائية أيضا، **نظرية الانحطاط للوحشية** أن البدائيين تراجعوا عن الدولة المتحضرة وأن البدائية أشارت إلى السقوط من النعمة) يجب محاربتها بقوة قبل أن تتقدم الأنثروبولوجيا الاجتماعية لذلك قدمت نظرية التطور الاجتماعي بديلاً للنهج المسيحي للاهوتي المعاصر لفهم التنوع الثقافي .ونتيجة لذلك واجهت نظرية التطور الاجتماعي في القرن التاسع عشر معارضة كبيرة في بعض الأوساط .. اقترحت هذه النظرة الجديدة أن التطور كان خطًا للتقدم كانت فيه المراحل الدنيا شرطًا مسبقًا إلى الأعلى، بدت هذه الفكرة متناقضة تمامًا مع الأفكار التقليدية حول العلاقات بين الله والبشرية وطبيعة الحياة والتقدم، [1]انتقد أنصار التطور النهج المسيحي باعتباره يتطلب الوحي الإلهي لشرح الحضارة، بالمختصر كما اقترح بالفعل كانت نظرية التطور الاجتماعي مدرسة فكرية اعترفت بالكثير من الاختلاف في الرأي كانت هناك نقاشات تتعلق بشكل خاص بالمركب الاجتماعي

[1] انظر موقع https://socialsci.libretexts.org/Bookshelves/Anthropology، تاريخ الزيارة: 03-01-2021

والثقافي الذي يمثل المراحل الأكثر بدائية في المجتمع، على سبيل المثال كان هناك العديد من الحجج حول التسلسل الدقيق لظهور النظام الأبوي والنظام الأمومي[1].

اندهش كارل ماركس من أوجه التشابه بين مذهب مورغان التطوري ونظريته في التاريخ، ابتكر ماركس ومساعده فريدريك إنجلز نظرية يفترض فيها أن مؤسسات الزواج الأحادي والملكية الخاصة والدولة مسؤولة بشكل رئيسي عن استغلال الطبقات العاملة في المجتمعات الصناعية الحديثة، قام ماركس وإنجلز بتوسيع مخطط مورغان التطوري ليشمل مرحلة مستقبلية من التطور الثقافي حيث يتوقف وجود الزواج الأحادي والملكية الخاصة والدولة وتعاود "شيوعية" المجتمع البدائي الظهور وإن كانت في حالة تحول.

أدت بداية القرن العشرين إلى نهاية عهد التطور الأولي في الأنثروبولوجيا الثقافية، كان خصمه الرئيسي هو فرانز بوا، الذي تضمن خلافه الرئيسي مع أنصار التطور افتراضهم أن القوانين العالمية تحكم الثقافة البشرية بأكملها، جادل بواس بأن هؤلاء الأفراد في القرن التاسع عشر يفتقرون إلى بيانات كافية (كما فعل بواس نفسه) لصياغة العديد من التعميمات المفيدة .[2]

وهكذا كانت النظرية التاريخية والوظيفية كما سبق ذكرها كردود فعل على نظرية التطور الاجتماعي في القرن التاسع عشر، لكن نوعًا مختلفًا تمامًا من نظرية التطور

[1] أنظر موقع:
https://credoreference.libguides.com/c.php?g=139776&p=915533، تاريخ الزيارة: 03-01-2021.
[2] انظر نفس الموقع.

الأنثروبولوجي سيعود إلى الظهور في أواخر القرن العشرين، حيث بدأ بعض العلماء في تطبيق مفاهيم الانتقاء الطبيعي للظواهر الاجتماعية والثقافية.

رابعاً: الأنثروبولوجيا والمعرفة:

تتناول الأنثروبولوجيا المعرفية الطرق التي يتصور بها الناس الأحداث والأشياء في العالم ويفكرون بها، ويوفر رابطًا بين عمليات التفكير البشري والجوانب المادية والفكرية للثقافة [1].هذا الحقل الفرعي للأنثروبولوجيا متجذر في النسبية الثقافية في بواس، متأثرًا باللغويات الأنثروبولوجية، ويتماشى بشكل وثيق مع التحقيقات النفسية للعمليات المعرفية، نشأ كمجال منفصل للدراسة في الخمسينيات من القرن الماضي، حيث سعى علماء الإثنوغرافيا إلى اكتشاف "وجهة نظر السكان الأصليين"، معتمدين نهجًا ديناميكيا للأنثروبولوجيا [2].تمت الإشارة في البداية إلى الحقل الجديد بشكل مختلف على أنه Ethnogenetic و Ethnoscienceو Ethnolinguistics و Ethnographyالجديدة.[3]

في العقود الأولى من الممارسة، ركز علماء الأنثروبولوجيا المعرفية على **التصنيفات الشعبية**، بما في ذلك مفاهيم اللون والنباتات والأمراض خلال الستينيات والسبعينيات،

[1] عبد الوهاب، جعفر. البنيوية في الأنثروبولوجيا. القاهرة: دار المعارف، 1988، ص 89.
[2] محمد، الخطيب. الأنثروبولوجي الثقافية. دمشق: دار علاء الدين، 2003، ص 55.
[3] نفس المرجع، ص 56.

حدث تعديل نظري وتحول منهجي في الأنثروبولوجيا المعرفية، إذ استمرت التحليلات اللغوية في توفير طرق لفهم الفئات المعرفية للشعوب الأصلية والوصول إليها.

ومع ذلك لم يعد التركيز مقصورًا على العناصر والعلاقات داخل فئات السكان الأصليين، ولكنه شدد على تحليل الفئات من حيث العمليات العقلية افترض علماء هذا الجيل أن هناك عمليات عقلية تعتمد على بنية العقل، وبالتالي مشتركة بين جميع البشر، وسع هذا النهج نطاقه ليشمل ليس فقط مكونات أنظمة الفكر المجردة ولكن أيضًا لفحصها **كيف ترتبط العمليات العقلية بالرموز والأفكار** [1].

كانت المنهجية والأسس النظرية وموضوعات الأنثروبولوجيا المعرفية متنوعة، يمكن تقسيم المجال إلى ثلاث مراحل:

(1) فترة تكوينية مبكرة في الخمسينيات تسمى العلوم الإثنية.

(2) الفترة الوسطى خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، والتي تم تحديدها عمومًا بدراسة النماذج الشعبية.

(3) الفترة الأخيرة التي بدأت في الثمانينيات مع نمو **نظرية المخطط** وتطور **نظرية الإجماع** .

تتوافق الأنثروبولوجيا المعرفية بشكل وثيق مع علم النفس، لأن كلاهما يستكشف طبيعة العمليات المعرفية كما اعتمدت العناصر النظرية والتقنيات المنهجية من البنيوية

[1] عبد الوهاب، جعفر. مرجع سابق، ص 92.

واللغويات، الأنثروبولوجيا المعرفية هي مجال واسع للبحث، على سبيل المثال درست الدراسات كيفية ترتيب الأشخاص للألوان والنباتات في فئات وكذلك كيفية تصور الناس للمرض من حيث الأعراض والسبب والعلاج المناسب، لا تركز الأنثروبولوجيا المعرفية على اكتشاف كيفية تنظيم الشعوب المختلفة للثقافة فحسب، بل تركز أيضًا على كيفية الاستفادة من الثقافة .

تحاول الأنثروبولوجيا المعرفية المعاصرة الوصول **إلى المبادئ المنظمة التي تكمن وراء السلوك البشري وتحفزه،** على الرغم من أن نطاق الأنثروبولوجيا المعرفية واسع النطاق، إلا أن منهجيتها تستمر في الاعتماد بشدة على تقليد طويل الأمد للعمل الميداني الإثنوغرافي والمقابلات المنظمة[1].

يعتبر علماء الأنثروبولوجيا المعرفية الأنثروبولوجيا علمًا رسميًا، إنهم يؤكدون أن الثقافة تتكون من قواعد منطقية تستند إلى أفكار يمكن الوصول إليها في العقل وتؤكد الأنثروبولوجيا المعرفية على قواعد السلوك وليس السلوك نفسه، لا تدعي أنها يمكن أن تتنبأ بالسلوك البشري ولكنها تحدد ما هو متوقع اجتماعيًا وثقافيًا أو مناسبًا في مواقف وظروف وسياقات معينة، لا يهتم النهج المعرفي في الأنثروبولوجيا بوصف الأحداث من أجل شرح أو اكتشاف عمليات التغيير، علاوة على ذلك يعلن هذا النهج أن كل ثقافة تجسد نظامها التنظيمي الفريد لفهم الأشياء والأحداث والسلوك[2]

[1] نفس المرجع السابق، ص 93.
[2] محمد، الخطيب. مرجع سابق، ص 60.

يؤكد بعض العلماء أنه من الضروري تطوير عدة نظريات للثقافات قبل السعي نحو إنشاء نظرية ثقافية كبرى، بعبارة أخرى يصر الباحثون على أن الدراسات يجب أن تهدف إلى فهم ثقافات معينة في تكوين التفسيرات النظرية .بمجرد أن يتم تحقيق ذلك تصبح المقارنات بين الثقافات صحيحة وموثوقة ممكنة مما يتيح نظرية عامة لجميع الثقافات[1] .

لم يتم اعتبار الأنثروبولوجيا المعرفية حتى الخمسينيات من القرن الماضي بمثابة نهج نظري ومنهجي متميز في الأنثروبولوجيا، ومع ذلك يمكن إرجاع جذورها الفكرية إلى أبعد من ذلك بكثير حيث يشير إلى أن عصر التنوير أنتج وسيلة متميزة واحدة على الأقل لشرح العالم الطبيعي ومكان الإنسان بداخله: كان أساس المعرفة البشرية، بما في ذلك المواجهات مع العالم المادي، موجودًا في العقل، وهكذا حولت الفلسفة انتباهها إلى تحليل العقل البشري والعمليات المعرفية.

لطالما كان التفاعل بين المجتمع والعقل مجال اهتمام فكري .أكد مفكرو عصر التنوير روسو وهوبز ولوك جميعًا أن هذا التقاطع كان ذا أهمية قصوى لفهم المجتمع .افترض روسو أن البشر طيبون في الأساس، لكنهم دمرتهم الحضارة والمجتمع وحث على العودة إلى "الحالة الطبيعية "، أكد هوبز أن البشر بطبيعتهم مجموعة متوحشة وأنانية، المجتمع والحكومة ضروريان للسيطرة على طبيعتنا الأساسية وكبحها، من ناحية

[1] انظر موقع: https://anthropology.ua.edu/theory/functionalism/ تاريخ الإطلاع 10-01-2021

أخرى رفض "لوك" الفكرة الديكارتية للأفكار الفطرية وافترض أن البشر عند ولادتهم "ألواح فارغة"، ليسوا جيدين ولا سيئين مع تجربة ثقافتهم التي تشكل نوع الشخص الذي سيصبحون عليه[1].

ربما كانت أكثر مساهمة طويلة الأمد لفلاسفة عصر التنوير في تطوير الأنثروبولوجيا المعرفية هي دعوة لوك **للتجربة** :لقد تصور معرفة العالم على أنها لها جذور في التجربة الحسية، جادل لوك بأن "الجمع والتركيب بين الانطباعات الحسية البسيطة أو" الأفكار "(تُعرَّف على أنها محتويات ذهنية) في مفاهيم أكثر تعقيدًا، من خلال التفكير بعد الإحساس، يمكن للعقل الوصول إلى استنتاجات سليمة"،[2] تم تصور الإدراك على أنه يبدأ بالإحساس ويستند إلى الخبرة .في التنافس مع التقليد التجريبي كان التوجه العقلاني، الذي أكد أن العقل وحده قادر على تحقيق المعرفة .ومع ذلك فقد قاوم التنوير هذا الادعاء، معتبراً أن العقل يعتمد على الخبرة الحسية لمعرفة أي شيء عن العالم باستثناء تلفيقات العقل كانت المزاعم العقلانية للمعرفة غير شرعية بشكل متزايد، لا يمكن للعقل الخالي من الخبرة الحسية إلا التكهن، ترجمت هذه المباني إلى مناهج علمية مختلفة وكان يُنظر إلى العلم على أنه آلية لاكتشاف الحقائق المحتملة للوجود البشري،

[1] محمد عبده، محجوب. الاتجاه السوسيوأنثروبولوجي في دراسة المجتمع. الكويت: وكالة المطبوعات، 2008، ص 56.

[2] انظر موقع: https://anthropology.ua.edu/theory/functionalism/ تاريخ الإطلاع 10-2021-01

وليس كأداة للوصول إلى المعرفة المطلقة للحقائق العامة والعامة، لا تزال هذه المفاهيم المعرفية يتردد صداها اليوم في الأنثروبولوجيا المعرفية المعاصرة، وكذلك من بين مناهج أخرى، وفي الأساس النظري والمنهجي للمدرسة.

على الرغم من العمل من مختلف الافتراضات النظرية، فقد ركز المفكرون الأوائل على العلاقة بين العقل والمجتمع، لكنهم أكدوا على تأثير المجتمع على العقل البشري، واستمر هذا الاتجاه الفكري خلال القرن الثامن عشر وظهر جليا في عناوين الكتب البارزة في هذا العصر، في *كتابه "التقدم التاريخي للعقل البشري*(1750)"، اقترح "تورجوت" أن البشرية مرت بثلاث مراحل من التعقيد المتزايد: الصيد والرعي والزراعة .

تاريخ كوندورسيه الفكري للبشرية، *الخطوط العريضة لتقدم العقل البشري* (1795)، ركز على الفكر الأوروبي، وقسم التاريخ إلى عشر مراحل وبلغت ذروتها مع الثورة الفرنسية، في أوائل القرن التاسع عشر، طور "أوغست كونت" فلسفة أصبحت تعرف بالوضعية حيث اقترح كونت أن أنماط التفكير السابقة كانت تخمينية بشكل غير كامل، وأن المعرفة يجب اكتسابها من خلال الملاحظة التجريبية، لقد رأى أن التعقيد الفكري تطور بنفس الطريقة التي تطور بها المجتمع والكائنات البيولوجية[1].

كان الممارسون الأوائل للأنثروبولوجيا مهتمين أيضًا بالعلاقة بين العقل البشري والمجتمع .من خلال عرض بياناته من خلال منظور التطور، واصل مورغان تقليد التنوير

[1] محمد عبده، محجوب. مرجع سابق، ص 66.

لشرح الظاهرة التي لاحظها كنتيجة لزيادة العقلانية كان "تايلور"، الذي شارك العديد من آراء "مورغان"، مهتمًا أيضًا بجوانب العقل في المجتمعات الأقل نموًا، إن تعريفه للثقافة بأنها "الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق وأي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع"، يعكس هذا الاهتمام أحد المفاهيم الأساسية للأنثروبولوجيا الثقافية وخاصة الأنثروبولوجيا المعرفية، هو **الوحدة النفسية للبشرية**، حيث تم تطوير هذا المفهوم من قبل الألماني "أدولف باستيان" في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر .بعد ملاحظة أوجه التشابه في العادات في جميع أنحاء العالم، خلص "باستيان" إلى أن جميع البشر يجب أن يكون لديهم نفس العمليات النفسية أو العقلية الأساسية، وأن هذه الوحدة أنتجت استجابات مماثلة لمحفزات مماثلة، في حين أن معظم علماء الأنثروبولوجيا يميلون إلى أخذ هذا المفهوم على أنه أمر مفروغ منه، فإن بعض علماء الأنثروبولوجيا الإدراكية المعاصرين يشككون في هذا الافتراض[1].

يمكن إرجاع الدراسات المعرفية في الأنثروبولوجيا الحديثة إلى "فرانز بواس" أدرك "بواس"، الذي تحول لأول مرة إلى الأنثروبولوجيا خلال بحثه عن الإسكيمو وتصورهم للون الجليد والماء، أن الشعوب المختلفة لديها تصورات مختلفة عن العالم من حولهم، لقد تأثر بشدة لدرجة أنه بدأ في تركيز عمل حياته على فهم العلاقة بين العقل البشري والبيئة، هذا العمل الذي غذته تمرده ضد التفكير العنصري السائد في ذلك الوقت، من شأنه أن

[1] عبد الوهاب، جعفر. مرجع سابق، ص 100.

يوجه "بواس" نحو محاولة فهم نفسية الشعوب القبلية، يتم التعبير عن هذا الجانب من عمله بشكل أفضل في مقالته "المشكلات النفسية في الأنثروبولوجيا"، وتبلغ ذروتها في كتابه عقل الإنسان البدائي شجع "بواس" الاستقصاءات عن الفئات القبلية للحس والإدراك مثل اللون وهي موضوعات ستكون حاسمة في التطور اللاحق للأنثروبولوجيا المعرفية.

نشأت بعض الدقة المنهجية والأسس النظرية للأنثروبولوجيا المعرفية من **الأنثروبولوجيا اللغوية**، كانت فرضية "سابير وورف"، على وجه الخصوص مقدمة مهمة لهذا المجال، في الثلاثينيات من القرن الماضي، صاغ اللغويان "إدوارد سابير" و"بنجامين لي وورف" وجهة نظر مفادها أن هياكل اللغة والثقافة تخلق فئات تصنيفية تشكل المعنى ووجهات النظر العالمية، كما أن التطورات الموازية في علم النفس في الخمسينيات من القرن الماضي تدين بالكثير لعلم اللغة، في حين نجد علماء النفس غير الراضين عن التفسيرات السلوكية لـ BF Skinner ، إلى الرؤى اللغوية لنعوم تشومسكي لإضفاء الشرعية على واقع الأحداث العقلية،[1] تظهر المناهج الأنثروبولوجية المعرفية المبكرة للثقافة تأثير علم اللغة من الناحية النظرية والأساليب.

في السنوات الأخيرة تم دمج منهجيات الأنثروبولوجيا المعرفية في أبحاث أنثروبولوجية أوسع، مع وجود عدد قليل من الأقسام التي تقدم الأنثروبولوجيا المعرفية

[1] نفس المرجع السابق، ص 105.

كمجال دراسي متميز، يمكن لعلماء الأنثروبولوجيا المهتمين بالإدراك أن يتطلعوا إلى مجال العلوم المعرفية متعدد التخصصات والذي يركز بشكل متزايد على التقدم في علم الأعصاب واللغويات المعرفية وعلوم الكمبيوتر، لا سيما فيما يتعلق بتطوير الذكاء الاصطناعي.

كما أثبتت الأنثروبولوجيا الطبية مثلا أنها أرض خصبة لتطوير الأساليب المعرفية والفهم العملي لتأثير النماذج الثقافية للمرض والرفاهية، [1]مما لا يدع مجالا للشك في توسع المعرفة الأنثروبولوجية وانقالها لجميع الميادين الحيوية والسائدة في أوساط البشرية، الأمر الذي يفتح الأبواب لولوج عالم جديد من المعرفة مبني على الأنثروبولوجيا الحديثة.

خاتمة:

لعل من الأمور التي تتضح لأول وهلة —من دراسات كهذه —أن الإنسان كائن فريد داخل المملكة الحيوانية، إذ على الرغم من كثير من أوجه الشبه في البنيان الجسماني، فهو يتميز ببعض السمات والخصائص الجسمانية التي لا وجود لها آلية حتى عند أقرب أقربائه داخل المملكة الحيوانية، فمخ الإنسان أكثر تعقيداً من مخ أي نوع حيواني آخر، آما أنه يسير ويقف في وضع منتصب تماما ولذلك يتميز ببناء مميز للقدمين، ثم إن حوضه أعرض وأكثر تسطيحاً من حوض أي حيوان آخر، وساقاه

[1] محمد عبده، محجوب. مرجع سابق، ص 89.

المركز الجامعي سي الحواس بريكة
المجلس العلمي
معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية

أطول بالنسبة إلى الجسم وطول الذراع، كما أن عموده الفقري يأخذ شكل حرف S أكثر منه مستقيماً أو منحنياً، ولما كان الإنسان يستخدم يديه فقط في الإمساك بالأشياء، وليس للاعتماد عليها في السير، نجدها تتصف هي الأخرى ببناء متميز بمقارنتها بأيادي الحيوانات الأخرى.

ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقدر الإنسان حق قدره إلا في ميدان دراسة السلوك، فحيثما وجد الإنسان ومهما تكن بساطة ثقافته، نجده يستعمل أدوات وغيرها من المصنوعات المادية، ونجد لديه أساليب معينة للحصول على الطعام، تتباين في درجة تعقيدها، ونجده يعرف درجة معينة من تقسيم العمل أو نوعاً من التنظيم الاجتماعي والسياسي، ونسقاً للمعتقدات والطقوس الدينية، والقدرة على التواصل مع أقرانه بوساطة لغة منطوقة، وجميع هذه الخصائص الثقافية لا وجود لها عند الحيوانات الأخرى. فالإنسان وحده هو الذي يملك أساليب للسلوك متطورة ومتقدمة باستمرار هي ما يطلق عليه الأنثروبولوجى اسم "ثقافة".

قائمة المراجع:

أولاً: مراجع باللغة العربية:

1- ابن بطوطة، أبو عبد الله. رحلة ابن بطوطة، تحقيق: البشير محمد سعيد، بيروت: دار التراث، 1968.

2- ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدّمة ابن خلدون، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1968.

3- أبو زيد، العيسي. الطريق إلى المعرفة، كتاب العربي، الكويت: منشورات مجلّة العربي، العدد 46، 2001.

4- أبو هلال، أحمد. مقدّمة في الأنثروبولوجيا التربوية، عمان، الأردن: المطابع التعاونية، 1999.

5- أبو هلال، أحمد. مقدّمة في الأنثروبولوجيا التربوية، الأردن: المطابع التعاونية، 1974.

6- جابر، سامية. علم الإنسان – مدخل إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، بيروت: دار العلوم العربية، 1991.

7- الجباوي، على. الأنثروبولوجيا – علم الإناسة، دمشق: جامعة دمشق، 1997.

8- الجسماني، عبد العال. علم النفس وتطبيقاته الاجتماعية، بيروت: الدار العربية للعلوم، 1992.

9- الجيوشي، فاطمة والشمّاس عيسى. التربية العامة، دمشق: جامعة دمشق – كليّة التربية، 2003.

10- الجيوشي، فاطمة. فلسفة التربية، دمشق: جامعة دمشق، كلية التربية، 1988.

11- الحصري، ساطع. أحاديث في التربية والاجتماع، بيروت: دار العلم للملايين، 1985.

12- الخشاب، أحمد. دراسات أنثروبولوجية، القاهرة: دار المعارف، 1970.

13- خشيم، علي فهمي. نصوص ليبيّة، طرابلس، ليبيا: دار مكتبة الفكر، 1999.

14- خفاجة، محمد صقر. هيرودوت يتحدّث عن مصر، القاهرة: دار العلم، 1999.

15- رشوان، حسين عبد الحميد أحمد. الأنثروبولوجيا في المجال النظري، ط1، الاسكندرية: دار الشروق، 1988.

16- سليم، شاكر. قاموس الأنثروبولوجيا، الكويت: جامعة الكويت، 1981.

17- عبد الوهاب، جعفر. البنيوية في الأنثروبولوجيا. القاهرة: دار المعارف، 1988.

18- عيسى، محمد طلعت. مدخل إلى علم الاجتماع، بيروت: دار المعارف، 1986.

19- فهيم، حسين. قصّة الأنثروبولوجيا – فصول في تاريخ علم الإنسان، الكويت: دار الهناء للنشر والتوزيع، 2005.

20- كلاكهون، كلايد. الإنسان في المرآة، ترجمة: شاكر سليم، بغداد، 1964.

21- لبيب، الطاهر. سوسيولوجيا الثقافة، اللاذقية، سوريا: دار الحوار،1987.

22- لطفي، عبد الحميد. الأنثروبولوجيا الاجتماعية، القاهرة: دار المعارف، 1979.

23- لينتون، رالف. الأنثروبولوجيا وأزمة العالم الحديث، ترجمة: عبد الملك الناشف، بيروت: المكتبة العصرية، 1967.

24- لينتون، رالف. دراسة الإنسان، ترجمة: عبد الملك الناشف، بيروت: المكتبة العصرية، 1995.

25- محمد عبده، محجوب. الاتجاه السوسيوأنثروبولوجي في دراسة المجتمع. الكويت: وكالة المطبوعات، 2008.

26- محمد، الخطيب. الأنثروبولوجي الثقافية. دمشق: دار علاء الدين، 2003.

27- محمد، رياض. الإنسان – دراسة في النوع والحضارة، القاهرة: دار النهضة العربية، 1974.

28- محمود، عبد الحليم. التفكير الفلسفي في الإسلام، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1989.

29- مؤنس، محمد. الحضارة – دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها، الكويت: عالم المعرفة، 1978.

30- ناصر، ابراهيم. الأنثروبولوجيا الثقافية (علم الإنسان الثقافي)، عمّان: دار الفكر العربي، 1985.

الكتب باللغة الأجنبية:

1- Anderson, John . Conjuring with Ibn Khaldon: from an anthropological point of view, Leiden, 1984.

2- Boorstin, Daniel .J. The Discoveries A History Of Man's Search to Know his World and Himself .Vintage Books edition, 1983.

3- Darnell, Regna. editor Reading in the History of Anthropology, University of Illinois, 1987.

4- Leach, Edmund. Social Anthropology, Fontana- Paper backs, 1982.

5- Margolis, Maxine L. "Cultural Materialism." In Theory in Social and Cultural Anthropology, Vol. 1, edited by R. Jon McGee and Richard L. Warms, 147-149. Thousand Oaks, CA: SAGE Reference, 2013.ترجمة د.زيوش سعيد

6- Mauduit, J.A. Manuel d'Ethnographie, Payot, Paris, 2015.

7- Oswalt, Wendell. Other People , Other Customs , Holt Rinehart and Winston In, 1972.

ثالثا: المواقع:

1- https://anthropology.ua.edu/theory/social-evolutionism./
2- https://credoreference.libguides.com/c.php?g=139776&p=915533.
3- https://socialsci.libretexts.org/Bookshelves/Anthropology.